الدكتور أحمد زياد محبك

التفاحة الأخيرة

في الحقل

قصص قصيرة جداً

٢٠٠٩

١. خبزي الأسود الجاف

هذا هو خبزي الأسود الجاف، في مائدتي الأخيرة، من غير جبن ولا شاي ولا إدام، إذا لم يعجبكم فلكم جسمي، وأنا في الستين، فخذوه، وهو من غير دم، عجنت خبزي بدماه.

٢. لا بد من اللعب

قال له صاحبه، وهو يحاوره:

ــ لا بد من اللعب، ما رأيك في اللعب بالشطرنج؟

أجابه:

ــ لا أحب الشطرنج، أكره هذا التنافر الحاد بين مربعاته البيض والسود، أكره أن يتصارع الكل بمن فيهم الوزير والجند، حتى الفيل والحصان، حتى القلعة نفسها، ويقتل معظمهم، لينتصر في النهاية أحد الملكين، وليعود الصراع ثانية إلى الحلبة، بل يؤلمني كثيراً حرق خلايا الدماغ من أجل معارك متكررة لا تنتهي.

سأله صاحبه:

ــ ما رأيك في اللعب بالطاولة؟

أجابه:

ــ أكره هذه اللعبة أكثر، فهي مثل سابقتها، حجارتها إما بيضاء وإما سوداء، ولا شخصية لها، ولا أسماء، كلها مدورة مسطحة، وأكثر ما يؤلمني فيها اعتمادها على الحظ.

حدق فيه صديقه مستنكراً، فعلّق:

ــ أنا أكره الصراع والحروب والمعارك، أكره هذا الانقسام الحاد بين أبيض واسود.

قال صديقه في سره:

ــ أنت مخادع مخاتل، أو لعلك ضعيف جبان.

٣. موافقة وعدم الموافقة

فور عودته إلى عمله استدعى معاونه إلى مكتبه وسأله بحضور السكرتيرة:" ماذا فعلتَ بغيابي خلال الأيام الثلاثة الماضية؟"، أجابه معاونه:" كما أوصيتني، أمسكت الأمور بحزم شديد، رفضت ثلاثين طلباً، وافقت على خمسة فقط"، أجابه:" أحسنت، هذا هو المطلوب"، وطلب منه أن يعود إلى مكتبه، وفور خروجه، التفت إلى السكرتيرة وسألها:"كم طلباً عندنا هذا اليوم؟"، أجابته: "أحد عشر طلباً"، قال لها:" من غير أن أنظر فيها، اكتبي عليها مع الموافقة مباشرة، وضعي الخاتم، وسوف أوقع عليها فوراً"، وما إن أتم كلامه، حتى قرع الباب ودخل عليه معاونه، وهو يقول له:" نسيت أن أخبرك، هذا الطلب وصلني أمس عند نهاية الدوام، وكتبت عليه مع الموافقة، ولكن لم أوقع، القرار لك، وهو الآن بين يديك، أرجو أن تنظر فيه"، وضعه معاونه على المكتب أمامه ثم خرج، وعلى الفور كتب في الحاشية:"مع عدم الموافقة".

٤. أفضل مقهى

أشار إليّ بيده، وأنا أدخل إلى المقهى، ناداني، كنت أتمنى لو أقعد وحدي، أسرح في الفراغ، لا أفكر في شيء، كنت أتمنى لو أغوص في ضجيج المقهى ولغطه، أضيع فيه، وأنسى، ولكن، توجهت إليه، قعدت قبالته، المائدة تفصل بيننا، على الفور أخذ يتكلم: "اسمع النادل وهو ينادي: قهوة وسط، قهوة سكر زيادة، شاي، كولا، عصير، شاي بالحليب، كلها أذواق فاسدة، الناس لا يفهمون، لا يقدّرون، القهوة الحق هي القهوة السادة، من غير سكر، هي القهوة التي أشربها أنا، حتى القهوة السادة لا يعرفون كيف يشربونها، هذا يشربها دفعة واحدة، وآخر يشربها في خمس دقائق، وثالث في أربع ساعات، انظر، اسمع أصواتهم وضجيجهم، يشربونها وهم يقهقهون، أو يتخاصمون، أو يتاجرون ويبيعون ويشترون، لا ذوق عندهم ولا فهم"، نهضت، أمسك يدي يستوقفني، قلت له، وأنا أنظر في ساعة يدي:" اعذرني، تذكرت أنا على موعد مع صديق في مقهى آخر"، أضاف وهو ما يزال يمسك يدي:" كل المقاهي سيئة، أحضر صاحبك، وتعال إلى هذا المقهى، هذا أفضل مقهى، ألا ترى أني أقعد فيه دائماً".

٥. ستارة

ستارة مسدلة، تمتد نازلة إلى أسفل، ساكنة هادئة، أمام نافذة مغلقة، أتعبها الاستقرار، أكلها الغبار، العناكب عششت فيها، العتمة

في الداخل أعمتها، تود لو تنزاح قليلاً، تود ألا تحجب النور، هي لا تريد ذلك، ولكن هكذا لها أريد، كرهت نفسها، تود لو تهب عاصفة من الخارج فتكسر الزجاج، لتخترقه وتمضي إلى الخارج، لترفرف علماً، تعلو شراعاً، تود لو أشعل عابث عود ثقاب في الداخل فيحرقها، لتغدو رماداً تذروه الرياح، تود لو أعملت فيها طفلة مقصاً فمزقها، فتغدو دمية أو عقدة في جديلة، ويدخل إلى الغرفة شيخ عجوز، على كرسي متحرك، يسند ظهره إليها، يشعل سيكاراً غليظاً، يلتف دخانه حولها، يخنقها، يدخل طفل، ترى هل سيزيحها ولو قليلاً؟؟؟

٦. القفص

هو في القفص، القضبان تحيط به، الباب عليه مغلق، وهي تقف أمامه تتأمله، تمد له إصبعها، تبدّل الماء، تضع له الطعام، تودّ لو ينقر إصبعها، تود لو يحط على شعرها، تودّ لو تزقه الماء بفمها، وتفتح الباب، تمد يدها لتضع له قطعة سكر، تحاول أن تلمس ريشه الناعم، ومن جانب يدها يمر كالبرق، يحوم فوقها في فضاء الغرفة، يندفع نحو النافذة، يجذبه النور، يصطدم بالزجاج، يقع ميتاً.

٧. الصيف

يكره الشتاء، ملّ من البرد، زجاج النافذة يعزله عن العالم الخارجي، يود لو يخرج إليه، الدفء في الداخل لا يكفيه، يتمنى لو يأتي الصيف، ويهجم الصيف باكراً، مختصراً الربيع، وتجتاحه موجة حر قاسية، يغمغم قائلاً: "لا ينفع شتاء ولا صيف مع عجوز تجاوز السبعين".

٨. ماذا وراءه؟

اعتقدوا أنه من حجر لا يتحرك، أو من حديد لا يمكن زحزحته، أو من خشب مقدس لا يجوز مسه، اعتقدوا أن وراءه جنّاً أو كنزاً وهو مرصود لشخص معين، هو وحده من يحق له فتحه، ومرت حقب ودهور، وهم يتناقلون عنه الأخبار والحكايات والأساطير، ومرّ به طفل عابث، أدهشه، سأل نفسه ترى ما وراءه، دفعه بإصبعه، تفتت على الفور وانهار، رأى الناس كل الناس ما وراءه، تمنّوا لو أنهم كانوا قبل دهور قد فعلوا ما فعله هذا الطفل.

٩. طليطلة

هنا في شارع التلل بحلب، كان مقصف التوليدو، يعرفه جيداً من كان يقصده أمثالنا من العشاق القدامى، هل تذكرينه، حيث كنا نمضي معاً الصباحات الجميلة، وتشدو لنا فيروز "سألتك حبيبي لوين رايحين"، وهناك كانت طليلطة، وقد سقطت، وخرج منها أبو عبد الله الصغير، وتحول التوليدو هنا أيضاً إلى مخزن للألبسة المستوردة.

١٠. الراقي

دخل المحلات الراقية، خرج بحذاء وربطة عنق وقميص وبدلة وجوارب كلها راقية، أخذ يتبختر في مشيته، أحس بالفرق بين رائحة جسده ورائحة الثياب، اشترى زجاجة عطر راقية، أنت الآن برجوازي كبير إقطاعي رأسمالي رجل أعمال مسؤول كبير، لا فرق، سيارة سوداء مسرعة بللته من شعره الأشعث إلى حذائه الراقي، ليس في السماء غيمة، ولا في الأرض حفرة، من أين جاء هذا البلل؟

١١. هي وأختها

ذهبت في السوق مرتين وجاءت، ما تركت محلاً إلا وقفت أمام واجهته الزجاجية، تتأمل كل ما هو معروض، تقف تتأمل، وأختها الأكبر إلى جانبها تستعجلها، وأمها توّرمت قدماها، ورجعت ثانية إلى أول السوق، ما تركت محلاً إلا دخلت إليه، بلغت أقصى السوق، قالت لأمها: "لم يعجبني شيء"، قالت لها أختها: "أنا من أول محل دخلت إليه اشتريت، لم أتردد"، أجابتها بنزق: "أنت اشتريت أجمل ما في السوق كله"، ردت الأخت: "إذا شئت أعطيتك إياه، أو إذا شئت فاشتري مثله"، رفعت أنفها وقالت: "لا أقبل لا هذا ولا ذاك، الأسبوع القادم ستعرض في السوق أزياء جديدة، وسأنزل وحدي إلى السوق لأنتقي الحذاء الذي يعجبني".

١٢. الرفيق قبل الطريق

ألقيت نفسي في مقعد الحافلة، أرجعت المقعد إلى الوراء قدر المستطاع، أسدلت الستارة على النافذة، لو جلست إلى جواري ملكة جمال العالم لما أثارت اهتمامي، مرهق أنا، متعب جداً، طوال يومين لم أنم، ليت الحافلة تسير ويظل المقعد إلى جواري خالياً، لعلي أتمدد فيه وأنام، وتتحرك الحافلة، تنطلق، شكراً لك يا رب، سأحتل المقعدين وحدي، ولكن الحافلة تتوقف فجأة، أمد بصري إلى أمام، أستطلع، وتصعد صبية صغيرة رشيقة ناعمة، تمر بين المقاعد، تتقافز كأنها قطة، كم أنت كريم يا إلهي، هذا هو مقعدها في جواري، لن أنام، سأحدثها وأحكي لها طوال خمس ساعات، وتمر بي، تجتاز المقعد الخالي، ويطل وراءها ظل كبير، رجل عظيم، ضخم عملاق بدين هائل

الحجم، يزن مئتي كيلو، لا شك أنه حجز مقعدين في آخر الحافلة، أدعو الله أن يبعده عني، ولكنه يهوي في المقعد إلى جواري، كجلمود صخر حطه السيل من عل، كتفه تركب على كتفي، وكوعه تستقر على صدري، وكرشه الممتد أمامه يلامس مسند المقعد الذي أمامه، أتمنى لو يرجع الراكب أمامه بمقعده إلى وراء، لو فعل لبعج كرشه، ويفجؤني بكيس يضعه في حجره، وما إن تنطلق الحافلة حتى يفتحه، ويخرج صندويشة وعلبة كولا معدنية يأخذ في معالجة غطائها، وكتفه فوقي، وكوعه كأنها إزميل يحفر في صدري، وهو يرفع الصندويشة إلى فمه ويقضمها، قضقضة أسنانه تملأ راسي، وقرقرة الكولا في حلقه تثقب أذني، ويتجشأ، ألجأ إلى زجاج النافذة أحتمي به، أود لو ينكسر لأخرج منه، أحشر نفسي في الزاوية، أحاول البعد عنه ما استطعت، أحاول النوم، أرى المعاون يقترب، يدنو، يميل على الرجل، أسمعه يقول له: "أرجو أن تتكرم، فتعطي مقعدك للآنسة التي صعدت قبلك، مقعدها في آخر الحافلة، فهي تشكو من الدوار، كرم منك لو أنك أعطيتها مقعدك".

١٣. التفرغ للقراءة

التقاني على الرصيف مصادفة عند الزاوية، استوقفني، عانقني بحرارة، وانتحى بي جانباً، كنت أحث الخطا مستعجلاً نحو دار الكتب الوطنية، وأنا أحمل بضعة كتب كنت استعرتها قبل شهر، كي أردّها، هو زميل قديم، كنا معاً أيام الدراسة الجامعية، قال لي:" أنا استقلت من الوظيفة قبل عشرة عوام، عملت في التجارة، بدلت داري القديمة التي تعرفها، ثم اشتريت فيلا في الحي الغربي، زوجت الأولاد كلهم، اشتريت لكل ولد شقة فخمة وسيارة، وعندي مزرعة، وشاليه على البحر، سأدعوك في الصيف إلى البحر، الآن استراح بالي، صار من حقي الآن أن أتفرغ للقراءة، سأزورك قريباً لتدلّني على عناوين بضعة كتب لقراءتها، أظنك لم تتقاعد بعد، وأظن أن دارك ما تزال هي نفسها"، شد على يدي، ودعني، ثم مضى كل منا في اتجاه.

١٤. لم يفعل شيئاً

سألتها صديقتها: "كيف كان لقاؤك اليوم معه"، أجابتها وهي ترسل زفرة طويلة: "غبي جداً، بارد جداً، ما توقعت منه هذا"، وقبل أن تسألها عن السبب تابعت قائلة:" هذا هو اللقاء الثالث، كنا نسير على الرصيف تحت ضوء القمر، وكنت إلى جواره، لصقه، وعطري يملأ الشارع كله، والنسمات الربيعية تنعشنا، رفعت هاتفي الخلوي وطلبت منه أن يفتح نظام الاستقبال في هاتفه، سألني بغباء لماذا؟ أجبته لأرسل إليك أغنية أحبها، ورفع هاتفه بيده وأخذ يبحث عن نظام الاستقبال، أمسكت بيده، بأصابعي الناعمة الدافئة المشتاقة إلى لمسة، وانتظرنا دقائق حتى استقبل هاتفه الأغنية، ويدي في يده، ثم أرسلت إليه أغنية ثانية أطول"، قاطعتها صديقتها سائلة:" إيه، وماذا فعل؟"، أطلقت زفرة طويلة، وغمغمت، وهي تتحسّر:"لم يفعل شيئاً".

١٥. قوة الخيال

هو وراء المقود ينتظر أن تخرج من باب العمارة، تريث إلى أن انتهت من تصفيف شعرها، إلى أن انتهت من زينتها، إلى أن انتهت من ارتداء ثيابها، ثم لم يعد يطيق صبراً، نزل إلى السيارة قبلها، وقعد وراء المقود ينتظر، شغّل محرك السيارة، أطلق البوق مرتين، ثلاث مرات، رنّ لها بالهاتف الجوال، أخذ صبره ينفد، أخيراً خرجت من باب العمارة، قال لها:"أنا أراك جميلة، حتى من غير هذه الأناقة"، أجابت:"أعرف ذلك، ولكن أنا لا أتخيلك أنت وحدك، أنا أتخيل الناس كلهم، أحسّ أن الناس كلهم ينظرون إليّ، يراقبون ثيابي، ينظرون إلى تصفيفة شعري، يتفحصونني بأعينهم، هكذا أتخيلهم، لا يمكن أن أخرج إلى الشارع من غير أن أتهيأ".

١٦. صديقي الأعز

في منتصف الشارع، والمشاة يعبرونه مسرعين، خوف الإشارة الحمراء، التقينا، في منتصف الشارع استوقفني، شد على يدي، عانقني، "لا بد من أن تمضي معي إلى المقهى، أنا أدعوك"، هكذا قال لي، عشرين عاماً عشناها معاً، سافرنا معاً، درسنا معاً، نمنا معاً في فنادق رخيصة، نجحنا معاً، عملنا معاً، ثم مرت ست سنوات، ما اتصل بي ولا اتصلت به، ست سنوات مرت، رقم هاتفي في دفتره، ورقم هاتفه في دفتري، ما اتصل أحدنا بالآخر، كان في السنوات الست الماضية يعمل وراء مكتب عليه أجهزة هواتف خمسة، يصحبه مرافق إلى سيارته التي يقودها سائق خاص، واليوم، على ما يبدو انتهت مهمته، وعاد إلى عمله الأول، وهو يمشي على قدميه، ويقطع الشارع مثل سائر الناس، وكان لا يعبره إلا بسيارته، الإشارة تغيرت، أبواق السيارات انطلقت، هل أستجيب إلى دعوته، وأمضي معه إلى المقهى، وأحتسي معه كأس شاي أسود اللون قاتم جداً، حلو جداً، كما كنا نفعل من قبل؟

١٧. توازن بيئي

حي حديث، هادئ جداً، راق جداً، نظيف جداً، تتقاطع فيه عشرة شوارع، مستقيمة، متوازية، تشكل حارات منتظمة المسافات والأبعاد، تنهض فيها عمارات من حجم واحد، ونمط واحد، الشرفات كلها متماثلة، ألوان الستائر فيها واحدة، المصابيح في الشرفات واحدة، لا شيء من خلل أو فوضى أو اضطراب، عمال خاصون يسهرون على نظافة الحي، حراس خاصون يسهرون على راحته، لا ترى فيه إلا السيارات الفارهة الحديثة، لا ذرة من غبار عليها، ولا ترى على الرصيف علبة تبغ مرمية، ولا قطعة ورق ممزقة، الأرصفة مفروشة بزهرات الياسمين، ترميها شجيرات تتسلق الأسيجة، وفي الحدائق شجيرات الغاردينيا، وهي تنفح الشوارع عبقها الفاغم، لا تشم حيث سرت إلا شذى الزهور، ولا تسمع إلا تغريد البلابل، سكان الحي كلهم قضاة ومحامون وأساتذة جامعيون وعلماء ومثقفون.

طوال النهار يطوف في أرجاء الحي، وخلال شوارعه، وبين عماراته، في صيف وفي شتاء، شاب في الثلاثين، لا يعرف أحد من أي بناء يخرج في الصباح، ولا إلى أي بناء يأوي في المساء، صامت، لا يكلم أحداً، ولا أحد يكلمه، دأبه الرواح والمجيء، شعره منكوش، ثيابه بالية رثة، قذرة جداً، رائحته كريهة جداً، أمره غريب جداً.

١٨. اتفاق

يقول الطلاب: الأسئلة صعبة، ولا أحد منهم يقول نحن لم ندرس، يقول الأساتذة: الطلاب لا يدرسون، ولا أحد منهم يقول الأسئلة صعبة.

١٩. دعاية

تشجيع الزواج المبكر، شقة لكل شاب، التشجيع على الإنجاب، منع الإجهاض، زواج الأرامل، لا عنوسة بعد اليوم، الدعوة إلى تعدد الزوجات، نمو الأسرة، زيادة السكان.

هذه كانت بنود حملته الانتخابية، وبعد نجاحه اختلف كل شيء، أصبح يكتب في الصحف ويلقي الخطب ويجري المقابلات الصحفية داعياً إلى تنظيم الأسرة، والحد من النسل، ومحاربة تعدد الزوجات، وعدم تحميل الحكومة المسؤوليات والأعباء.

٢٠. قبور لا تراها

هضبتان ناهضتان تتألقان في الأفق البعيد، وأنا في الحافلة أدنو منهما، أقترب، كم هما بهيتان، أحس بهما من غضار ناعم، أراهما تنهضان بدفء، تشعان بسحر، هما متماثلتان، متناظرتان، بينهما فجوة حنون، وأنا أقترب منهما، أود لو تقف الحافلة لأتسلقهما، أحبو فوقهما، ألمسهما باليد، الآن تبرزان أكثر، تعلوان، وأنا أدنو وأدنو، أرى قبوراً تنام على السفح منهما، هنيئاً للراقدين في تلك القبور الدافئة الحنون، أتمنى أن يكون قبري هناك في الفجوة بين الهضبتين، لا بين القبور على السفح، ألتفت إلى الصبية، وهي إلى جواري في الحافلة، أقول لها: انظري إلى تلك القبور على السفح من الهضبتين، كم هي جميلة، الصبية تنفجر ضاحكة، لا تكاد تستطيع إمساك نفسها عن الضحك، تقول لي: أي قبور؟ هذه أغنام ترعى العشب الأخضر.

٢١. شروق وغروب

ــ صباح الخير، ماما.

ــ صباح الخير، ابنتي سناء.

ــ بصراحة ماما، والدي بحاجة إليك.

ــ ساعديه أنت وإخوتك.

ــ لا يا ماما، حان الوقت لإنهاء زيارتك لأختي.

ــ أختك بحاجة إليّ، هذا أول مولود لها، ضروري بقائي بقربها.

ــ يا أمي، كان هو وأمه بحاجة إليك.

ــ واليوم حاجته إليّ أكبر، صار عمره سبعة أشهر.

ــ وأبي صار عمره سبعين سنة.

ــ هو بحاجة إليّ صدقيني، أي طعام تأكله أمه، يؤثر في أمعائه، يحسّ بمغص شديد.

ــ وأبي يا أمي، أي شيء يأكله، يؤثر في معدته، ويشعر بألم شديد، كل يوم يأخذ المليّنات.

ــ لو رأيت سامر، طار عقلك، قطعة من اللحم.

ــ وأبي يا أمي، لو رأيته، تقطع قلبك، كيس من الجلد والعظم.

ـ وأحلى شيء محاولته الزحف على يديه وركبتيه.
ـ وأصعب شيء يا أمي محاولة أبي النهوض، أنا وإخوتي نسرع إلى مساعدته، ينهض على يديه، كأنه يزحف، وركبته تؤلمه.
ـ افهميني يا بنتي، لا أستطيع ترك ابن أختك، تربية الولد أصعب من الحمل والولادة والإرضاع.
ـ وأبي يا أمي، نحن نعطيه الدواء في موعده، ونشرف على طعامه، لا ملح ولا بهار، ولكن هذا لا يكفي، هو بحاجة إلى من يؤنسه في هذا العمر.
ـ أختك يا بنتي تذهب كل يوم إلى وظيفتها، ويبقى سامر وحده.
ـ ونحن يا أمي، أنا وإخوتي كل واحد منا يذهب إلى مدرسته أو جامعته، ويبقى أبي وحده.
ـ يستطيع أبوك أن يذهب إلى المقهى.
ـ وأختي يمكن أن تضع ابنها في دار الحضانة.
ـ لا يا بنتي، الرجل الكبير ما هو مثل الطفل الصغير.
ـ نعم يا أمي، هذا صحيح، ولكن الرجل الكبير بحاجة إلى من يرعاه أكثر من الطفل الصغير.
ـ ما هذا الكلام يا بنتي، أنا أحدثك من الشرق، وأنت تكلميني من الغرب.
ـ صدقت يا أمي، أنت مللت من أبي، كبر وعجز، أنت بحاجة إلى طفل صغير يملأ حياتك.
ـ صدقت يا بنتي، المسؤولية يتحملها جدك، زوّجني من رجل يكبرني بخمس وعشرين سنة، أو أكثر .
ـ ولكن أنت عشت معه العمر.
ـ اعذريني، سامر الآن يبكي، أنا مضطرة لمقاطعتك، أخشى أن يكون وقع عن السرير.
ـ وأبي يا أمي، أبي يصيح، أظنه وقع....

٢٢. غداً، وبعد غد

في الخمسينيات من القرن العشرين كان يتمنى أن يقرأ كتاباً أو كتابين عن الوجودية، ولكن المصروف الذي كان أبوه يعطيه إياه ما كان يكفيه ثمن الدفاتر والكتب المدرسية، ثم أخذ يفكر بقراءة الكتب القومية، وكان يعمل ليلاً ويدرس نهاراً، وادخر بعض النقود، ولكن مرض أبيه المفاجئ استنفد كل ما ادخره، أخذ يفكر بشراء الكتب الاشتراكية المترجمة إلى العربية، وهي رخيصة الثمن، ولكن موت أبيه وتحمله مسؤولية الإنفاق على إخوته، كان يمنعه من شراء أرخص كتاب، قرر أن يقرأ في دار الكتب الوطنية والمركز الثقافي كل ما يتعلق بالبنيوية والحداثة، ولكنه كان قد تزوج واشترى شقة وتراكمت عليه الديون والأقساط للمصرف، وكان عليه أن يعمل محاسباً في محل تجاري بعد انصرافه من وظيفته، أخيراً قرر حضور محاضرات عن العالمية والعولمة، ولكن كل يوم كان يزوره الأولاد والأحفاد والبنات والأصهار، وتوفيت زوجته، فاستقر في دار صغيرة، ما عاد يزوره أحد، بضع لقيمات تكفيه، في الوقت متسع، ولكن البصر كلّ، والنفس ضاقت، وهو يشكو من ألم في المفاصل، وارتفاع في الضغط، وزيادة السكر في الدم، وتضخم البروتستاتا، حسبه أن يقرأ على علب الدواء موعد تناول سبعة أدوية، ثلاث مرات قبل الطعام وبعده، هو اليوم في مطلع القرن الحادي والعشرين قاعد في كرسيه المتحرك، ممدداً قدميه، التلفزيون أمامه، وعلى المنضدة بعض الكتب والصحف يعلوها الغبار.

٢٣. في الخزانة

أحد الأساتذة كان ينصح لي بوضع قصصي في الخزانة، والعودة إليها عاماً بعد عام، وإعادة تنقيحها، ومراجعتها، ثم حذف أكثرها وعدم نشره.
ما أزال أحترمه، ولكنني لست نادماً لأنني لم آخذ بنصيحته.

٢٤. اليوم، والآن

بعد عشر دقائق كنت أرتشف معه القهوة، في المقهى الشعبي، أمام القلعة، وهو يحدثني: "أنا في زيارة مع وفد من جامعة باريس الثامنة، الوفد الآن في القلعة، تركتهم مع الدليل السياحي، أنا أعرف القلعة، رغبت في رؤيتك". وأسأله: "هل هم طلاب في قسم اللغة العربية؟"، فيجيبني: "منهم ثلاثة في قسم اللغة العربية، والآخرون من أقسام مختلفة، آثار وتاريخ عمارة وفلسفة وعلم اجتماع، الجامعة نظمت لهم رحلة إلى لبنان وسورية وتركية لمدة أسبوعين، وكلفتني الجامعة بمرافقتهم".
هو صديق قديم، أستاذ جامعي من سورية، يقيم في باريس، يعمل في السوربون رئيساً لقسم اللغة العربية، كان قبل عشر دقائق قد اتصل بي بالهاتف، سررت، سألته: "تتصل بي من باريس؟ " قال لي: " لا، أنا هنا في حلب"، أعرفه يأتي كل عام صيفاً ليمضي عطلة الصيف، ولكننا الآن في أوائل الربيع؟ ما الذي جاء به إلى حلب؟ وسألته: "أين أنت؟"، أجابني: "أنا هنا في المقهى أمام القلعة، تعال، أنا

بانتظارك". وخلال عشر دقائق كنت معه في المقهى.

وأسأله: "هل جاؤوا على نفقتهم؟"، يجيبني:" لا، الجامعة تتحمل كل النفقات، أعطتني شيكاً مفتوحاً، وزودت كل واحد بخمسة ألاف يورو، في بيروت أصيب أحدهم بنوبة قلبية، اتصلت بالسفارة الفرنسية، وفوراً جاء مبعوث من السفارة، وحمله مع زوجته بسيارة إسعاف إلى مشفى الجامعة الأمريكية، وفي صباح اليوم التالي حملته وزوجته إلى مدينة ليون مباشرة طائرة خاصة"، وأعلق مدهوشاً:" شاب ويصاب بنوبة قلبية؟ وطالب جامعة ومتزوج؟ هذا شيء غير معقول؟"، صديقي يضحك، يضحك عالياً، ثم يقول: "انظر، هذا هو الوفد السياحي، خارجاً من القلعة، وهو قادم نحونا"،أدهش، عجائز وشيوخ، شيب، يتوكأ أكثرهم على عصي، أو يسند بعضهم بعضاً، وأقول له: " لا تمزح"، ويرد علي:" هؤلاء هم أعضاء الوفد، كلهم تجاوزوا الخامسة والستين، كلهم أصحاب اختصاصات علمية عالية، طب وهندسة وجيولوجية ومعادن، كلهم متقاعدون، وكل واحد يريد أن يمتّع نفسه فيما تبقى من حياته، فانتسبوا إلى كليات أدبية وإنسانية، دراستهم في الجامعة مجانية، لا يدفعون أي قسط، والجامعة تزودهم بالكتب والمحاضرات مسجلة على أقراص ليزرية، ومن الممكن أن يقدم أحدهم امتحانه بالإنترنت على الحاسوب وهو قاعد في بيته" .

٢٥. مقابلة قبل عشرين عاماً

ـ سيدي، أنا ترتيبي الأول على أربعمئة متخرج، ومع ذلك لم يتم قبولي؟

ـ الأول لا يعني كل شيء، هل تريد أن نأخذ الأول ونترك الأخير؟

ـ ولكن معدلي هو الأعلى، ومجموع علاماتي هو الأكثر؟

ـ العلامات وحدها ليست كل شيء.

ـ ولكنها على الأقل مؤشر.

ـ جامعتكم تعطي علامات عالية

ـ ولكنها جامعة رسمية

ـ صاحب العلامات الأعلى ليس الأذكى، على العكس هو الطالب الذي يتقيد بالمقرر، ويقيد نفسه به، ولا يملك الثقافة والاطلاع.

ـ ليس دائماً، يكفي أن أقول لسعادتك أني في الأشهر الثلاثة الماضية قرأت عشرين كتاباً قراءة نقدية جادة، وأستطيع أن ألخصها لك الآن.

ـ طبعاً كان عندك فراغ وملأته، أفدت نفسك، استمر بالمطالعة.

ـ والعمل؟ ألا يحق لي الحصول على وظيفة بعد دراسة أربع سنوات ونيل الشهادة؟

ـ يكفي أننا منحنا لأمثالكم فرصة الدراسة وفتحنا لكم جامعة وكانت دراستكم فيها مجانية.

ـ والعمل؟

ـ لسنا ملزمين بتوظيفكم.

ـ وما فائدة الشهادة؟

ـ هو مؤهل علمي، منحناه لك، يمكن أن تعمل به في أي قطر من أقطار الوطن العربي الواحد.

ـ هذا يعني نفيي من وطني؟

ـ نحن لا ننظر إلى الأمور مثل هذه النظرة القطرية الضيقة، يجب أن تكون نظرتك قومية شاملة، عملك في أي قطر عربي لا يعد نفياً، هو رسالة قومية تؤديها لأبناء الوطن الواحد.

ـ أنت تحاول إقناعي، وتقدم لي إجابات جاهزة.

ـ يكفي أني استقبلتك في مكتبي، ومنحتك من وقتي، ولولا التوصية الخاصة من أبو سمير ما كنت استقبلتك، أنت تعرف ضيق وقتي وارتباطاتي ومواعيدي والتزاماتي الكثيرة، وأظن أن مدير مكتبي نبهك إلى أن الزيارة لدقيقتين فقط.

٢٦. مقابلة بعد عشرين عاماً

ـ أنا سعيد بلقائك هنا في هذه الندوة، وأنا سعيد بأنك من وطني.

ـ شكراً لك.

ـ من أي جامعة نلت شهادتك؟

ـ من الوطن.

ـ أنا أعتز بمثلك، الحقيقة استمعت إلى محاضرتك، نحن نعتز بما عندنا من طاقات مبدعة خلاقة تعمل في الخارج.

ـ ولكني لست في الخارج، أنا في قطر عربي شقيق.

ـ هذا صحيح، نحن ننادي بالوطن العربي الكبير، ولكن وطنك الصغير بانتظارك أيضاً.

ـ أنا أزوره كل عام، وأمضي فيه إجازة الصيف.
ـ الحقيقة نحن بحاجة إليك، يجب أن تعود إلى وطنك، الوطن بانتظارك.

٢٧. مكحاطاريس

تسع سنوات مرت مع اجتماع مطول في كل شهر ومجمع اللغة العربية الموحد الذي يشمل كل مجامع اللغات العربية وذلك المجمع يناقش هذه الكلمة الجديدة، وفي النهاية لم يستطع إقرارها لأسباب لا علاقة لها باللغة العربية، وقرر إعادتها إلى كل مجمع ليكون له رأيه الخاص فيها، بل اقترح إنشاء مجامع لغوية صغيرة في كل قطر، مجمع للشمال ، ومجمع للجنوب، ومجمع للداخل ومجمع للساحل، ومجمع للريف ومجمع للمدينة، وعلى تلك المجامع الصغيرة البحث في إقرار الكلمة.
وفي الحقيقة يعرف الكلمة كل أعضاء المجمع، ويعرفون دلالاتها، ويعرفها الخدم الذين يطوفون عليهم بكؤوس الشاي وفناجين القهوة، يعرفها الطباع على الحاسوب، ويمثلها مدير المدرسة ورئيس الدائرة ومدير المعمل ومدير المؤسسة وكل مسؤول رفيع، ثم أصبح يمثلها كل مواطن، يمارسها البائع على المشتري، وسائق سيارة الأجرة على الراكب، ثم أخذ كل مواطن يمارسها على نفسه وظله.
الكلمة منحوتة من: مك ـ ملك حا ـ حاكم طا ـ سلطان ريس ـ رئيس= مكحاطاريس.

٢٨. وحده

عند الخامسة بعد الفجر، ينهضون ويمضون، يغادرونه وحده، ويمضى إلى فراشه، لينام، ويستيقظ بعد ساعتين، متورم العيني، ويمضي إلى عمله، يخاصم هذا ويختلف مع ذاك، يكره عمله، ويشتم مديره، ويلعن الملفات والوثائق، يرجع إلى البيت عند الثالثة بعد الظهر، يفتح الأبواب والنوافذ، يجمع الأطباق والصحون والملاعق والكؤوس المقاة في المجلى من ليلة أمس، يغسل الصحون الملأى بأعقاب السكائر، يعد طعاماً سريعاً، يتناول لقيمات على عجل، ثم يستغرق في النوم، عند الحادية عشرة يهجم عليه الصحب، يملؤون حياته، ويبدؤون اللعب بورق الشدة، وتدور كؤوس الشاي وفناجين القهوة، ثم يكون العشاء في الثالثة عند الفجر، ويعودون إلى اللعب، وفي الخامسة ينصرفون.
هم الأصدقاء الأوفياء حقاً، يملؤون حياتي، هم خير من الزوجة والأولاد، فلتذهب هي والأولاد إلى الجحيم.
ذات يوم يرفع سماعة الهاتف، يتكلم متوسلاً:"عودي إلى البيت أرجوك، أعدك، لا أصحاب بعد اليوم، أنت والأولاد الكل في الكل".

٢٩. شهادة

وهو يهم بالدخول إلى البناء، خرج إليه جاره من المحل الملاصق، ناداه، فرجع إليه.
ـ أهلاً جاري
ـ أهلاً بك، اليوم، قبل ساعة تقريباً، جاء شخص سألني عنك، صدّقني ذكرتك بالخير، شهدت فيك خير شهادة، قلت له: جاري شاب مهذب، يعيش وحده مع أمه، بارّ بها مطيع، طوال عشرين سنة ما سمعت صوته، لم يتخاصم مع جار، هو سمح كريم، يشتري كل حاجاته من محلي، لا يستدين، إذا سأله أحد القرش الذي معه أعطاه له بلا تردد، كريم، لا يبخل، يعطي من قلبه، إذا دخل المحل ورأى الأولاد اشترى لهم قطع الحلوى ووزعها عليهم، لو كان المحل ملكه لأعطاهم كل ما فيه، يعطي من قلبه، لا يبخل، لا يزوره أحد، ينصرف من عمله، فيرجع إلى بيته ولا يخرج منه، ينام من أول المساء إلى الفجر، ما سهر طوال حياته خارج البيت، لا يحب السهر، طيب جداً، عاقل جداً، لا يؤذي أي إنسان، هادئ، مطيع،قلت له..
يقاطعه الشاب:
ـ أنت آذيتني يا جاري.
ـلماذا؟ ألا تنوي الزواج؟!!
ويرد الشاب:
ـ لا خطبة ولا زواج، تقدمت للعمل في وظيفة حارس في المعمل.

٣٠. حوار حر مفتوح

اتصل بي مدير الفضائية وأكد لي أن الحوار حر ومفتوح ومباشر وبوسعي أن أتكلم فيه بحرية مطلقة وكما أشاء عن الفساد، وأن مدة المقابلة ربع ساعة، قلت له: "ربع الساعة غير كافية"، أكد لي أنني بفصاحتي وذكائي أستطيع أن أقول كل ما أريد بسبع دقائق لا ربع ساعة، كنت أعرف أنه كان يتملّقني، وبحثت في المصادر والمراجع وفي المواقع الإلكترونية عن الفساد، وفي الموعد المحدد وجدت سيارة أمام باب المنزل في انتظاري، وطار بي السائق فوراً، وفي غرفة التسجيل كنت أنتظر الإشارة من المخرج وهو وراء الزجاج في غرفة التحكم، وقد أذهلتني معدة البرنامج، وقد استقبلتني بقميص مفتوح عند الصدر حتى فجوة النهدين، وغمرتني بعطر ساحر، وعينين كالبحر، وضحكة

كأنها تعرفني منذ ألف عام، وكانت يدها في يدي دافئة جدا، وكأنها لا تريد مغادرة يدي، ومالت علي وهي تضع السماعة في أذني واللاقط الصوتي في قميصي، فكدت أضمها إلي، وصدرها ينهمر أمامي، وبدأت السؤال: بصفتك شاعراً فبماذا تشبه الفساد هل تشبهه بغول أو وحش مفترس أو نار تشب فتأتي على الأخضر واليابس، أجبتها: لنبدأ أولاً بالتعريف، وكنت قد فكرت من قبل بثلاثة تعريفات، ولكنها قاطعتني: ليس مهماً التعريف المهم أن نعرف شعورك نحوه، وطبيعة انفعالك به، ما المشاعر التي تحس بها نحو الفساد؟ وما نطقت ببضع جمل، حتى قالت: والآن أعزائي المستمعين نقدم إليكم هذه الأغنية الجميلة، وأخذ فريد الأطرش يصدح: الدنيا حلوة، نغمتها غنوة، يا الله نعيش ونحياها، ولا أعرف ماذا سألتني بعد ذلك وماذا أجبت، ثم أشار المخرج أن سينزل فاصل إعلاني، والتفتت إليّ، وهي تهمس: هذه أجمل دعاية ستعجبك كثيراً، المشاهدون لن ينسوك ولاسيما السيدات، لأن هذه الدعاية تهم ربات البيوت، وأخذت تنزل أمامي دعاية لمسحوق غسيل، ثم سمعتها تسألني، ولا أعرف بماذا أجبت، ثم أخذت تقول: "ويسرنا في الختام أن نقدم لمشاهدينا الأعزة هدية هذه الأغنية"، خارج غرفة التسجيل استقبلني مدير الإنتاج، دعاني إلى مكتبه، قدم لي شيكاً بخمسة آلاف دولار، حاولت الاعتذار عن قبضها، قلت له أنا لم أتكلم على الفساد، قال: "المهم أنك تكلمت بما هو مطلوب".

٣١. معرفة شاملة

إلى التلفاز أسرع فور استيقاظي، قبل أن أغسل وجهي، أتابع التلفاز وأنا أحلق ذقني، وأنا أتناول فنجان قهوتي قبل خروجي إلى العمل، وآخر ما تراه عيني هو شاشة التلفاز، قبل أن أهجع إلى الفراش، أعرف كل شيء عن نيكارغوا وموزابيق وعن القرصنة قبالة شواطئ الصومال وانتخابات أمريكا وكأس العالم، وعن الإيدز وإنفلونزا الطيور وعودة انتشار الكوليرا في إفريقية ووفيات الأطفال، ولكن لا أعرف شيئاً عن عمل زوجتي أو دراسة أولادي.

٣٢. قوانين خاصة

الثلج ينهمر على الأسطح والأرصفة وفوق الحافلات والسيارات فوق أعمد الكهرباء وأسلاكها، فوق رؤوس المارة وأكتافهم، ينهمر سريعاً رشيقاً، يتشبث بكل شيء، حتى بأسلاك الهاتف، ليس في الشارع بين المارة أي شيخ عجوز، سوى ذلك العجوز الشائخ الواقف في الناصية، في زاوية الشارع، يمد يده بأوراق النصيب، من سيشتري ورقة حظ في هذا الجو؟ الأطفال يلعبون تحت الثلج المنهمر ناعماً، يتقاذفون بكراته البيض، الأبيض يغمر الأسطح والأرصفة وأعمدة الكهرباء، الثلج يصمم على الثبات فوق الأكتاف والرؤوس، والناس ينفضونه، وأنا أحاول الإسراع، تحت مظلات المحلات، وأنت تبطئين من خطواتك كي لا تسبقيني، نفتح الباب الزجاجي، نقتحم المقصف، نغوص في الدفء والصخب والضجيج ودخان السكائر، وإلى جانب الزجاج، نقعد إلى منضدة صغيرة متقابلين، وبأطراف أناملك المصبوغة بالأحمر تفكين اللفاعة الوردية عن جيدك الأبيض، وينفتح القميص الأسود عن صدرك الدافئ كالثلج، وأنا أخلع قفازي الجلديين، وأضع عن رأسي قبعتي الصوفية السميكة.

وقبل أن يسألنا النادل ما نريد، أقول له:

ــ كاسين من الشاي الساخن جداً، من فضلك، لا أريده أن يصلنا وهو بارد.

أحلم بكأس شاي ساخن أحمر ألف أصابعي حوله أستدفئ به.

ولكنك تستوقفين النادل، لتقولي له:

ــ عفواً، أنا أريد كأس حليب مثلج، مثل هذا الثلج.

ثم تلتفتين إليّ لتقولي:

ــ اعذرني، لا أشهى من الحليب المثلج في مثل هذا الجو.

وتصمتين قليلاً، لتضيفي مع بسمة ناعمة:

ــ لا أنصح لك بتجربته، أخشى عليك البرد، لكل مرحلة من العمر قانونها الخاص.

٣٣. الصمت:

طلق زوجته، وتزوجها، زوجته صامت، لا تكاد تتكلم، وهي مقدمة برامج في التلفاز، فتنه حديثها، تعلّق بأسلوبها في الكلام، أدهشته طريقتها في التعليق والحوار، لا تكاد تصمت، هي كالبلبل الغرّيد، مقابلة في الصباح، حوار في المساء، رشاقتك سيدتي، طبق اليوم، الأبراج، اخترت لك، حوار مع المشاهدين، تعليق سياسي، غنى وتنوع وموضوعات كثيرة متنوعة.

بعد أسبوع من زواجهما، وهما في الفندق ما زالا معاً يمضيان إجازة الزواج، قال لها والنادل يحضر لهما الأطباق:

ــ حدثيني، لماذا أنت صامتة؟

ــ عن أي شيء تريد أن أحدثك؟ تكلمنا على كل شيء، لم يبق أي شيء لنتكلم عليه.

٣٤. خيانة

دبابيس وإبر تخز كل مسام من مساماتي، مناشير ناعمة حادة تنشر في العظم، مخارز حادة تخز الضلوع، مثقاب كهربائي يثقب في كل مفصل من مفاصلي، شيء ينخر في الداخل، مثل نمل ينخر في جذع شجرة يابسة، جسمي كله مثل قطعة جبن كبيرة والفأر يأكلها من الداخل، فإذا هي جْاويف فارغة، يملؤها الألم، في العروق تسري رعدة، في العضلات انكماش وتقلص، كأن رذاذاً ناعماً من ماء مثلج ينصب على الظهر، تباً لك أيها الجسد، كم كنت أعنى بطعامك وشرابك وعطورك وثيابك، منحتك كل ما هو فاخر من العطور، وغال من الثياب، ونظيف من الطعام، ونقي من الشراب، كم منحتك من المتع والملذات والمسرات؟ تباً لك، كم أنت خائن أيها الجسد، ليتني ما منحتك ساعة من لذة.

٣٥. بين بين

ثلج يكسر زجاج الجسد، وغبار يسد منافذ الروح، ولا ريح تدفع الشراع، الأجنحة تأكلها جرادات الأيام، في الأرض حجارة تنهض قبراً ساخراً يفغر فاه، وخفافيش سود تسد السماء، وحورية تتثنى في المرج الأخضر قرب النبع، وحدها تنصب خيمتها، توقد شمعتها، تتعرى، تهبط إلى النهر، تناديه.

هو بين الأرض والسماء، بين الثلج والغبار، بين الجراد والقبر، يسمع النداء، يرى الضفتين، ويظل بين بين.

٣٦. اعتراف

إلى الآن، وبعد اثنتي عشرة مجموعة قصصية، وبعد عمر من كتابة القصة ونشرها، أجد أنني حتى الآن لم أقل بعض ما أردت قوله.

٣٧. رحلة جافة

قال لي صاحبي: رحلتنا اليوم جافة، ناشفة، سنمضي خمس ساعات في طريق موحشة لا أنيس، لا امرأة في الحافلة، الركاب كلهم أحناش، ذكور، لا رائحة لأنثى، نحتاج إلى حواء، وقبل أن تنطلق الحافلة، صعدت سيدة، زغرد صاحبي وهتف، الآن طاب السفر.

٣٨. لا ينقصني شيء

التقاه مصادفة عند زاوية الشارع، استوقفه، سأله:

ــ كيف أنت؟

أجابه:

ــ لا ينقصني شيء، سيارة ومزرعة وفيلا ورصيد جيد في المصرف، وأعمالي التجارية فوق الريح، زوجت كل الأولاد، وعندي عشرة أحفاد، زوجتي الصبية أعادت إلي الشباب، عوضتني عن المرحومة أم الأولاد، الحقيقة لا ينقصني شيء.

ــ ولكن ينقصك أهم شيء.

سأل ملهوفاً:

ــ أخبرني بسرعة، أرجوك، حتى أسرع إلى شرائه، ما هو؟

ضحك، ثم أجابه، وهو يمضي:

ــ الإيمان.

٣٩. استعداد

ما إن وضعتُ سماعة الهاتف حتى أسرعتُ إلى مسح الأرض وترتيب الغرفة ونفض الغبار عن الأثاث، ثم التفتتُ إلى زوجها قائلة:

ــ هيا بسرعة، أحضر لي من السوق بعض الفاكهة، سيأتينا ضيوف، بعد ساعة، إلى أن ترجع من السوق أكون استحممت، وفرغت من تصفيف شعري.

غمغم هامساً:

ــ ليت الزوار يأتون إلينا في كل يوم، ليتهم يبقون عندنا دائماً.

٤٠. البحث عن الاختلاف

تسألها صديقتها:

ـ كيف كان اللقاء هذا اليوم؟؟

تجيبها:

ـ رائع جداً، القمر يختبئ خلف الغمام تارة، ويبدو أخرى، وهو يحدثني حيناً وجيناً أنا أحدثه، يمسك بيدي يداعب أناملي، والنسمات الربيعية تنعشنا، والأشجار على الرصيف تمتد أمامنا، كأنها عرائس، وأنا أسبح في عطره الفاغم، يا إلهي كم عطره رائع، شمي يدي، أناملي ما تزال تحمل رائحة يده، ولكن للأسف، لا بد دائماً ما ينغص علينا اللقاء؟

ـ ماذا؟ هل رآكما أحد؟

ـ رآنا كل الناس، هو لا يهتم، وأنا أتمنى لو رآنا كل الناس معاً.

ـ وإذن، ما الذي نغص عليكم اللقاء؟

ـ الناس أنفسهم، لا نعرفهم، ولا يعرفوننا، يحدقون بي، به يحدقون أكثر، ينظرون مستغربين، الصبايا والشباب، يحدقون مستغربين أكثر.

صديقتها تضحك، تقول لها:

ـ لهم العذر في ذلك، بل من حقهم أن يحدقوا وأن يستنكروا، وأن يعلقوا

تقاطعها:

ـ نعم، كنا نسمع تعليقات سخيفة، ولا سيما من الشباب، كيف عرفت؟ هل كنت معنا؟

ـ لا، ما كنت معكم، ولكن، هل نسيت، أنت قلت لي إنه في الستين.

ـ نعم، وليكن، ما الذي يمنع؟.

ـ يعني هذا أنه في عمر أبيك، وأنك في عمر ابنته.

ـ أعرف هذا، دائماً تحب المرأة رجلاً في عمرها أو قريباً من عمرها، أما حب فتاة لرجل في عمر أبيها أو جدها فهو المختلف، أنا أبحث عن المختلف.

٤١. الحصان الأبيض

حمحم الحصان الأبيض، فالتفت إليه زميله الأبيض وسأله:

ـ ما الذي يدور في صدرك؟

أجابه:

ـ يؤلمني أننا في الصف الثاني، ولسنا في الصف الأول.

أجابه زميله:

ـ أخطأت في التفكير، نحن في صف الملك والوزير، ويكفينا فخراً أننا نمتلك من حرية الحركة والانتقال أكثر مما يملك الجند أنفسهم، حتى إننا نستطيع القفز فوقهم.

سمع الجند كلهم الحوار، ولكنهم تظاهروا بالصمم.

٤٢. شكوى

جاءت أختي إلي تشكو زوجها، وهي تقول:

ـ لا أعرف أين يذهب براتبه، صدقني لا يشتري شيئاً للبيت، الثلاجة والغسالة والمكيف والفرن والستائر، حتى الستائر، هي كلها من راتبي أنا، وهو منذ عشر سنوات ما اشترى من راتبه للبيت أي شيء، هل يعقل أن يذهب راتبه كله في الطعام والشراب والماء والهاتف والكهرباء ومصروف الأولاد؟ ونحن ليس عندنا سوى أربعة أولاد؟!

وكلهم صغار، مازالوا في الابتدائية؟ !

وصمتت ثم أضافت:

ـ أخشى أن يكون عنده عشيقة يصرف عليها.

٤٣. حركة (١)

يفتح باب المدرج، وتطل بوجهها المورّد المتألق، وهي تلهث، وكتبها مبللة مثل شعرها الأسود الطويل، ينظر إليها الأستاذ بغضب، وهو

على عادته لا يسمح لأي متأخر بالدخول، وترد شعرها بيدها الناعمة، حركة يدها تغيّر الإيقاع كله، فيعزف الأستاذ نغمة القبول، وتدخل، وهي تحاول إغلاق الباب وراءها، فلها يقول:

ـ لأجلك، اتركيه مفتوحاً، فليدخل من بعدك الجميع، لأجلك وحدك لن أغلق الباب ورائي بعد اليوم.

ما أزال أذكر ذلك الأستاذ الشيخ العجوز، وهو يداعبها، واسمه ما يزال في روحي (يحيا).

٤٤. عبق (٢)

وترقى الدرجات، وإلى جواري تقعد، يغمرني شذى جسمها، وهي التي كانت تركض تحت المطر، لتصل إلى المحاضرة متأخرة، جسمها مبلل، شعرها مبلل، ثيابها مبللة، كتبها مبللة، أغرق في العبق، أمدها بمنديل ورقي، تحييني بهمسة عطرة، كان ذلك قبل أربعين عاماً، كنت في السنة الأولى، في الجامعة، هي المرة الأولى التي أشم فيها رائحة الأنثى مبللة بالمطر والعرق، ما أزال إلى اليوم، وأنا في الستين، أعيش ذكرى تلك الرائحة، فهي في الحس (خالدة).

٤٥. اكتفاء

التقاه مصادفة، فسأله:

ـ كيف علاقتك بربك؟

أجابه بتواضع:

ـ أنا لا أكذب، ولا أغش، ولا أخدع، أنا لا أسرق، ولا أؤذي أي أحد.

سأله بإلحاح:

ـ والصلاة؟

أجابه وهو يوليه ظهره، ويهم بالمضي:

ـ رحمته واسعة، وهو الغفور الرحيم.

٤٦. هكذا رأيته أنا

اضطررت إلى مجاراته، فهو صديق عزيز، ومضيت معه إلى المحاضرة، المحاضر صديقه، وهو قادم من العاصمة، ألحّ علي، كي أحضر معه، وصلنا متأخرين، وقد اعتلى المحاضر المنصة، وما إن رآنا داخلين حتى أشار إلينا مرحباً، ودعانا إلى الصف الأول.

ربطة عنقه فاخرة، متألقة، هي باريسية من غير شك، لا أستطيع تقدير ثمنها، بزته جديدة، من المؤكد أنه اشتراها لهذه المحاضرة خاصة، شعره مرجل، ومثبت بدهن لامع متألق، يتشدق ويتفيهق ويتفاصح، يشد ظهره، ويمد عنقه، ويرفع رأسه، وهو يحدق فينا واحداً واحداً، وعيناه تبدوان كبيرتين كبيرتين جداً من وراء نظارته الكبيرة، وهو يرفعها عن عينيه تارة، بأناقة مفرطة، وتارة يضعها، بهدوء ومبالغة، وهي معلقة إلى عنقه بسلسلة ذهبية، يريد أن يتعالى علينا وأن يفاخر ويباهي.

ويرن جهازي الخلوي، فأحمله بيدي وأنهض، أغادر القاعة.

بعد ساعة يتصل بي صديقي يسألني ويعاتبني، فأعتذر إليه بسبب هاتف ضروري طارئ، وهو حقيقة طارئ، ولكن ما هو بضروري، أخذ يحدثني عن صديقه المحاضر، وهو يقول:

ـ كان متعباً من السفر، الإجهاد واضح في عينيه، جاء بسيارته من الطريق الصحراوية، وهو يقودها بنفسه، انفجرت العجلة معه في الطريق، واضطر إلى تغييرها، ولذلك كان في أثناء المحاضرة يضطر إلى وضع النظارة تارة ورفعها تارة أخرى، ليمسح الغبار عن عينيه، حتى شعره كان أشعث من السفر، وربطة عنقه مغبرة، وأكد لنا أنه سيتحدث بعفوية، ولن يقرأ نص المحاضرة، أخذ يتحدث إلينا بعفوية حديثاً أقرب إلى العامية، أنا شخصياً عتبت عليه، أعرفه فصيحاً، سألني عنك، أكد لي أن حضورك سره جداً، كان يود لقاءك بعد المحاضرة، فهو يعرفك، ولكن أنت ...

٤٧. نحن الأكثر

قال جندي لجندي يجاوره في رقعة الشطرنج:

ـ يحزنني أن صلاحياتنا محدودة، فمن حق أحدنا أن يتحرك أول مرة فقط خطوتين، ثم لا يسمح له بالتحرك سوى خطوة واحدة، ولا يحق لنا أن نتراجع، مثل الحصان أو الفيل، أو مثل القلعة، حتى القلعة التي هي من حجر أفضل منا، ونحن أول من يموت.

أجابه صديقه معزياً:

ـ ولكن لنا شرف الدفاع عن ملكنا، وقد يأكل أحدنا ملك العدو، أو قد يموت ملك العدو بسبب جندي واحد منا، ولا تنس أنه يمكن أن

أصبح أنا أو أنت وزيراً، وعلى كل حال فنحن الأكثر عدداً.

قال له جاره الجندي:

ـ ما دمنا الأكثر عدداً فما رأيك في أن ننقض على الملك؟

دهش الجندي، وسأل:

ـ لا يمكن أن نخترق الصف الأول من جند العدو، لا بد أن يسقط جند العدو أولاً.

علق زميله:

ـ أقصد ملكنا نحن؟

سأله مدهوشاً:

ـ ولماذا ننقض عليه؟

أجابه:

ـ نصبح ملوكاً بدلاً منه؟

فكر الجندي طويلاً، ثم قال:

ـ كما قلت لك نحن الأكثر، ولنفترض أننا انقضضنا عليه، فمن منا سيصبح الملك، أنا أم أنت؟ أم الآخرون؟ وهم كثيرون؟ لا، لا، لا يمكن خرق قوانين اللعبة.

٤٨. إنقاذ

أبحث في جيبي عن ورقة فلا أجد، أبحث عن قلم، فلا أجد، ماذا أفعل؟ أكاد أنفجر، أنهض وأجذب المحاضر من عنقه، وأشده عن المنصة، وأقول له: يكفي، نعرف كل ما تقول، ليس فينا جاهل ولا أمي، أنت لا تضيف جديداً، بل أنت لا تقول أي شيء، كأنك معلم فاشل يريد أن يشغل أطفالاً في الصف الأول الابتدائي...

وأميل على الأرض، أجد قصاصة من جريدة قديمة، أتلقفها، شبكة إنقاذ، أمسح الغبار عنها، أقرؤها، ليس فيها سوى بضعة أسطر مقتطعة من سياقها، أقرؤها مرات مرات مرات، أعد أسطرها، أعد حروفها، أدخل في الفراغ الأبيض بين سطورها، مثل سجين في زنزانة، متى تنتهي المحاضرة؟؟؟

٤٩. الموتى والقبور

فور دخولنا في سيارة الأجرة قال صاحبي للسائق:

ـ أغلق هذه المسجلة، أو أسمعنا أغنية يفرح لها قلبنا.

دهشت، قلت لصاحبي:

ـ ولكن...

قاطعني قائلاً:

ـ عندما أستمع إلى تلاوة القرآن أتذكر على الفور الموتى والقبور.

٥٠. لا ضرورة للنقاش

قال لي صديقي، ونحن نغادر قاعة المحاضرات:

ـ مرت ساعة ونصف الساعة، وهو يتكلم، ودعا الحاضرين بعد ذلك بإلحاح إلى النقاش والحوار، ولكن لم يناقشه أحد، أعرف أن أكثر الحاضرين يختلفون معه، حتى أنت، ولكن لم يناقشه أحد، فما هو تفسيرك؟

أنظر إليه وأبتسم، ثم أقول:

ـ سؤال لا يحتاج إلى جواب.

٥١. الصوت

رأسه في الأرض، مطرق يفكر، يأتيه الصوت:

ـ انظر حواليك، انظر إلى الأمام.

يتنبه إلى أنه وحده بين إشارتين، يقطع الشارع، والسيارات تندفع مجنونة.

يهتف في سره:

ـ ليتك دائماً معي.

ويأتيه الصوت:

ـ أنا معك دائماً، ولكنك لا تسمعني.

٥٢. قرية جميلة

بيوت بيضاء جميلة تتسلق من جهة الشرق هضبة خضراء ممرعة، تسقط عليها أشعة الشمس الدافئة، فتبدو القرية مثل قطيع غنم يتحرك مع الحملان الصغيرة، وفي السماء تمرع قطعان من الغيوم البيض الجميلة، وأنا أراها من وراء زجاج الحافلة، وهي تمضي بنا منطلقة في الريف الجميل.

وتنعطف الحافلة لتلتف حول الهضبة الخضراء الممرعة، فتظهر خلف الهضبة من جهة الغرب حجارة بيضاء نقية جميلة هي أيضاً كالخراف، هي أيضاً قرية أخرى جميلة، ولكنها هادئة ساكنة في الظل الغربي للهضبة.

هي قبور الموتى.

٥٣. الوزيران

اتصل الوزير الأبيض في الشطرنج بالوزير الأسود، وقال له:

ـ إلى متى سنبقى طوال عمرنا وزيرين؟ ما رأيك في أن ينقض كل منا على الملك ويأخذ دوره ومكانه؟

ضحك الوزير الأسود، وقال له:

ـ من الأفضل أن نبقى وزيرين، فالملك بحاجة إلينا، ولسنا بحاجة إليه، وصلاحياتنا أوسع من صلاحياته، وإذا متنا فيمكن أن نبعث من جديد، يكفي أن يصل جندي إلى موقعنا لنعود إلى الوزارة، أما الملك فبنهايته تنتهي اللعبة.

٥٤. استرجاع

أدهشني الحاسوب وهو يسترجع كل الملفات المحذوفة، تمنيت لو أستطيع استرجاع كل ما فات من حياتي، تمنيت ذلك للحظة من الزمن، ولكن، سرعان ما فرحت لأنه لا يمكن استرجاع أي شيء مما فات.

٥٥. أبرياء

مبنى ضخم، محاط بسور هائل، يحتل هضبة عالية، يشرف على السهل المنبسط حوله.

أدهشه شكل المبنى، سأل والده:

ـ ما هذا البناء؟

مسح الأب رأس ولده ابن عشر السنين، أرسل زفة، ثم قال له:

ـ هذا سجن يا ولدي.

سأل الولد:

ـ وما معنى سجن؟

أجاب الرجل:

ـ بيت كبير .

وصمت، أرسل زفرة ثانية، ثم أضاف:

ـ يسكنه الأبرياء، يا ولدي.

٥٦. النسيان

ـ كيف أنت والصلاة؟

ـ واظبت عليها فترة، ثم تركتها

ـ ولماذا؟

ـ ما إن أقف للصلاة حتى أتذكر الدنيا كلها

ـ حاول أن تنسى

ـ هذه المشكلة

ـ اذهب إلى المسجد

ـ جربت،صدقني، كنت وأنا في المسجد أتذكر حذائي، ولا أعرف كيف أصلي، أخشى أن يسرق.

ـ اذهب بحذاء عتيق مهترئ.

ـ المشكلة ليس عندي حذاء عتيق.

٥٧. ما اسم القرية

أقف على الطريق، وأنا أحمل حقيبتي الجلدية الصغيرة، وفيها دفتر التحضير وأوراق الطلاب، أنتظر حافلة عابرة تحملني إلى القرية التي أعمل فيها، تمر عدة حافلات، أشير إليها وهي تمر ملأى غير مبالية، تقف بعيداً عني إحداها، أسرع إليها، أهم بالصعود، يسألني السائق وهو يطل علي بوجهه الكبير جداً والمدور والعريض كأنه قناع كبير، يسألني، أهم بالقول إلى القرية التي أعمل فيها، ولكن أقول: إلى أي القرى تصل حافلتك؟ وما القرى التي تمر بها؟ يذكر عدة قرى، أشير برأسي أن ليست هي، يتركني ويمضي، يتقدم مني طالبان، يحمل كل منهما بضعة كتب، أسألهما إلى أي قرية هما مسافران، يذكر أحدهم اسم قرية، أسألهما وما القرى التي تمر بها؟ فيذكران أسماء أربع قرى أو خمساً، ثم تقف أمامي حافلة صغيرة، يصعدان فيها، وأبقى وحدي، ألوك في لساني بضعة أحرف، أحدها يبدأ بها اسم القرية، أو هو موجود في تركيب الاسم، ما عدت أذكر اسم القرية التي أنا مسافر إليها، لا أعرف كيف نسيته، أوقظ زوجتي، وهي إلى جانبي في الفراش، تفتح عينيها بتثاقل، أسألها: ما اسم القرية، تحملق بي مذعورة، ثم تقول لي: أي قرية؟ عد إلى النوم، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

وما أزال إلى اليوم أحاول تذكر اسم تلك القرية.

٥٨. الساعة

كانت ساعة يده دقيقة جداً، كان يضبطها كل يوم، كان يصل بها إلى مكتبه قبل بدء الدوام بخمس دقائق، من غير زيادة ولا نقصان، كانت ساعة يد عادية جداً، رخيصة، ثمنها لا يكاد يذكر، لا يزيد عن عشر ليرات.

ساعة يده اليوم ذهبية، فاخرة، إلكترونية، متطورة جداً، ثمنها لا يكاد يقدر، لا تحتاج إلى ضبط، ولكن لا بد له في كل يوم من أن يتأخر عن مكتبه، كان موظفاً عادياً.

٥٩. العودة إلى البيت

قال لأولاده الثلاثة:

ـ هيا ارتدوا ثيابكم بسرعة.

وفور خروجهم أغلق الباب وراءه بعنف، وأخذ يهبط على الدرج بسرعة قبلهم، ولدى وصوله إلى الشارع، أوقف سيارة أجرة، ثم دعاهم إلى الدخول فيها، ودخل بعدهم إلى جوار السائق.

في مطعم فخم قدم لهم عدة أنواع من المقبلات والأطعمة وأسرف في طلب مختلف الصحون والأطباق، ثم طلب لهم الحلويات والمرطبات، ثم طلب لهم الشاي، وطلب لنفسه القهوة.

لم يستطع أن يتبين بدقة: هل تعبر ملامح وجوههم عن الاستمتاع أم عن الامتعاض؟ الصمت هو السائد، يأكلون، كأنهم لا يأكلون، ينظرون إليه، ثم يطرقون، سمير الصغير أكثرهم تردداً، يأكل ببطء، على مهل، كل ما حولهم فاخر، لا يمكن أن يحلموا به أو يتوقعوه.

ـ سنذهب إلى الحديقة، هناك ألعاب كثيرة، ما رأيكم؟

هكذا سألهم، يسيطر صمت قاس كالجبال، يتكلم سمير وشفته السفلى مقلوبة، صوته مخنوق، يكاد يبكي:

ـ سنذهب إلى بيت جدي، نريد العودة إلى البيت مع ماما.

٦٠. تجارة

كتبت طوال اليوم، تصبب جبيني قصصاً، حصلت على ألف ليرة، اشتريت بيضاً ودجاجات، رزقت بدجاجات كثيرة، هجم عليها الثعلب، طردته، اشتريت مزرعة، ربيت فيها بقرات سبعاً سماناً، حدث زلزال، ماتت بعض البقرات، عوضتها أعوام خير، كثر الحليب، صنعت الجبن، نافسني التجار، استولوا على السوق، اشتروا كل شيء، احتكروه، بثمن بخس بعت، خسرت قصصي، ضاع جبيني.

٦١. ليتها تأتي كل يوم

دخل إلى قاعة الصف، ففوجئ، هل هي القاعة نفسها؟ هل أخطأ؟ الطلاب موزعون بانتظام دقيق، اثنين اثنين في كل مقعد، وكان في

كل مقعد أربعة أو خمسة، أين البقية؟ ثيابهم نظيفة، شعورهم مسرحة، بل لامعة متألقة، وهي من غير شك معطرة، حقائبهم أمامهم على المقاعد نظيفة، بل جديدة، الجدران نظيفة، أزيل كل ما كان عليها من صور، ومسح عنها كل ما كان عليها من كتابات وتعليقات، الأرض نظيفة، لا ورقة مرمية على الأرض، ولا غبار، اللوح نظيف، وقف الطلاب جميعهم وقفة واحدة بقوة وبانتظام، أول مرة يراهم يقفون جميعاً دفعة واحدة بقوة وبانتظام، أشار إليهم بالجلوس، ماذا حصل؟ أي معجزة هذه؟ توجه إلى منصته، وإذا هي مغطاة بملاءة خضراء، تتوسطها مزهرية فيها ورود وأزاهير، وثلاثة أقلام خاصة بالكتابة على اللوح، ذهل، هي حقيقة معجزة، طالما حدثهم طوال العام الدراسي عن النظافة والنظام والترتيب، طالما وجههم إلى العناية بقاعة الصف، طالما نصح لهم وتكلم وكرر الكلام، إلى أن مل بل يئس، ويسألهم، فلا يتكلمون، يرفع أحدهم يده، ويقول:

ـ هل تسمح لي بالجواب، يا أستاذ؟

هكذا، من غير فوضى ولا صخب ولا ضجيج، وعلى غير المعتاد، يسود الصمت، ويرفع طالب وحده يده، ويتكلم بعربية فصيحة مع تحريك أواخر الكلمات، يستأذن أن يسمح له بالكلام، هي حقاً معجزة.

ويتكلم الطالب:

ـ أخبرنا بذلك السيد المدير يوم أمس، وطلب منا التهيؤ والاستعداد، اليوم، وفي الحصة الثانية، بعد حصتك يا أستاذ، ستصل بعثة إعلامية، من إحدى الفضائيات، وسيتم تصوير القاعة والطلاب.

عربية فصيحة، هدوء ونظام، نظافة وترتيب، ويسرح بعينيه عبر زجاج النافذة، يرى الباحة الواسعة الممتدة، يلقي نظرة على باب المدرسة المغلق، حتى زجاج النافذة نظيف متألق، وطالما رآه متسخاً يعلوه الغبار، والباحة نظيفة، وباب المدرسة مدهون بطلاء جديد، أجل هو مدهون بطلاء جديد، لقد نبهه الحارس لدى دخوله، يا لحظه العاثر، لماذا لا تأتي البعثة الآن، لماذا لا يكون اللقاء معه، ولكن ليتها لا تأتي الآن، فذقنه غير حليقة، وشعره أشعث، وعيناه بالتأكيد متورمتان، فهو لم ينم ليلة أمس، وقميصه قديم بل متسخ، يا لحظ الأستاذ أكرم، سيحظى بالتصوير، ولكن هل هو على استعداد.

ويسأل الطلاب:

ـ وهل يعلم الأستاذ أكرم بحضور البعثة الإعلامية، هل هو مثلكم على استعداد؟.

ويرفع الطالب نفسه يده، ويأذن له بالكلام:

ـ سيحضر الحصة بدلا من الأستاذ أكرم السيد المدير.

في صباح اليوم التالي يدخل إلى قاعة الصف نفسها، فيدهش أكثر مما دهش في صباح اليوم السابق، لقد عاد كل شيء إلى ما كان عليه من قبل.

٦٢. موتى

كنت في السابعة، وكان خالي يزورنا كل أسبوع مرة، لا بد من أن يزورنا كل يوم جمعة، كان يؤدي صلاة الجمعة في الجامع القريب من بيتنا، ثم يأتي لزيارتنا، ويتناول طعام الغداء معنا، وفي كل زيارة كان يحدثنا عن الموتى، "أمس الخميس شيعت جارنا الشيخ محمود، قبل يومين كنت في تعزية صديقي خالد، فقد توفي أخوه، أول الأسبوع، يوم السبت توفي ابن عمتي، رحمه الله"، هكذا، كان ما يفتأ يتحدث عن الموتى كلما زارنا، وكم كنت أستاء من أحاديثه، كنت لا أتخيل سوى الموتى، كان خالي في السبعين، وقد توفي في الثانية والثمانين، واليوم أتذكره، وقد بلغت الستين، وأنا أزور أختي كل أسبوع تقريباً، وأجتمع بأولادها، وفي كل يوم يموت واحد ممن حولي من الصحب والأقارب والأصدقاء، وأشارك في التعزية والتشييع، ولكنني لا أحدث أولاد أختي عن الموتى.

٦٣. ذل السؤال

لا أعرف كيف أتصرف؟ أحس كأني ضائع، هل أسأل هذا الشاب؟ قد يسخر مني، وهو في عمر أولادي، هل أسأل هذا الشيخ العجوز؟ لعل بصره كليل، ولا يستطيع أن يجيبني، هل أسأل تلك الفتاة الشابة، لعلها تقدر وضعي، وتجيبني من غير أن تشك في سؤالي، ولكن لا شك في أنها سوف تظن أن سؤالي مجرد خدعة، لا أعرف كيف أتصرف، هل سأتمكن من الوصول في الوقت المحدد، وأنا أحث الخطا على الرصيف وسط الزحام نحو مقر الشركة، فأنا على موعد مع المدير العام، وساعة يدي متعطلة، أودعتها يوم أمس عند مصلح الساعات، من سأسأله عن الساعة؟

٦٤. متى ينحت شاهدته؟

كل يوم أمر به في الصباح، قبل دخولي إلى مقر عملي، وهو أمام قطعة حجرية بيضاء مستطيلة، ينحت فيها الاسم واللقب واسم الأب وتاريخ الوفاة، ما يفتأ كل يوم ينحت شاهدة حجرية لقبر جديد.

هل ينحت بنفسه شاهدته الحجرية قبل أن يموت؟ وإذا مات فجأة فمن سينحت شاهدته؟

١٥. البحث عن التجديد

اتصل ملك الشطرنج الأبيض بصديقه ملك الشطرنج الأسود، وقال له:

ــ مللت، مللت من كل شيء، أبحث عن التجديد.

وبعد تشاور فيما بينهما، اتفقا على أن استبدال اللونين للرقعة والمربعات وللجند وللحاشية ولنفسيهما بلونين آخرين.

اختلفا حول اللونين الجديدين اللذين سوف يختارانهما، وبعد قليل من التشاور الودي، اتفقا على أن يختارا بين حين وآخر درجات مختلفة للأبيض نفسه والأسود نفسه.

١٦. بائع الزهر

في العمارة التي أسكن فيها محل لبيع الزهور، كل يوم أمر به، في الصباح والمساء، أنا ذهب إلى عملي، وأنا راجع منه، زهور وورود ورياحين وزنابق وقرنفل ونرجس وخزامى وغاردينيا وأضاليا وأصناف عديدة من أشكال وألوان مختلفة، تنفحني شذاها العبق كلما مررت بها.

وكثيراً ما أرى البائع على الرصيف أمام المحل وهو منهمك في إعداد باقات الزهر وتنسيقها، كم تبدو جميلة باهرة، تدل على ذوقه الرفيع.

اليوم أنا بحاجة إلى باقة ورد أحملها إلى أحد الأصدقاء هدية بمناسبة مولود رزق به، دخلت إلى المحل.

فوجئت بالبائع، يا إلهي كم هو دميم وقبيح؟!

١٧. مفاجأة

دائماً يفاجئه، لا يعرف كيف يبرز له، أو من أين، سأله هذه المرة: "متى زرت آخر مرة أمك؟"، دهش للسؤال، أجابه: "أنت تعرف، أمي ماتت قبل عشر سنين"، أجابه:" أعرف، ولكن قصدي من السؤال: "متى زرت آخر مرة قبرها؟"، غمغم في سره:"وما جدوى زيارة الموتى؟".

١٨. آخر النهار

راجع حساباته، أحصى بدقة المبالغ التي سلمها للموظفين الثلاثمئة، دقّق في الحسابات، كم سحب من المصرف، كم سلّم من الرواتب، كم ترك له كل موظف، بدقة وعناية حسب كل شيء، وإذا النتيجة: ثلاثة أضعاف راتبه، ضحك ضحكة واسعة، تمدد في مقعده إلى الوراء، وأخذ يحسب كم سيبلغ دخله في السنة، بل في عشر سنين، من الآن يمكنه شراء سيارة بالتقسيط، الأمر بسيط، تقول للموظف: ليس عندي من القطع النقدية ما أرده لك، هات ستين وخذ مئة، فيقول لك: اترك الأربعين لك، وهكذا، أربعون من هنا، وثلاثون من هناك، وإذا المجموع ثلاثة أضعاف راتبك، هذا في كل شهر، فقط سناء وحسناء كان معهما نقود من فئات مختلفة، حسبتا كل شيء، لم أحظ منهما هذا الشهر بليرة واحدة، لا يكفي أن أحظى منهما بنظرة، الشهر القادم سأنتقم منهما، سأقول لهما: ثمة خطأ في بيان الراتب، وفي الجداول، سوف أراوغهما، لن تتمكنا الشهر القادم من تسلم الراتب إلا بعد توسل، بل بعد أن تدفعا لي، سأقول لهما لا بد من مراجعة الجداول الأساسية وتدقيقها، وهذا يحتاج إلى وقت، وكل شيء بثمنه، أنا لا أجبر أحداً، هم يتركون لي ما يتركون عن طيب خاطر، والمولى تعالى قال: " فإن طبن لكم عن شيء نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً"، حقاً لقد قال رسول الله:"كل ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام"، وأنا لا آخذه بالحياء، ولا بالسيف، بل بعض الموظفين هم الذين لا حياء عندهم ولا خجل، إذ لا بد من أن يمدوا أيديهم إلى بضعة قروش، إذا كان الراتب عشرة آلاف وخمسمئة وعشرون ليرة، فهل ثمة قيمة لعشرين ليرة؟ وإذا تركها الموظف لي فهل ثمة في الأمر حرام؟ أنا إذا أخطأت في عد النقود مع كل موظف بليرة واحدة، ذهب راتبي كله، ولكن حتى الآن لم يأت المدير، نظر في ساعة يده، الدوام يوشك على الانتهاء، إذن، عليه أن يصعد إليه في مكتبه، وأن يحمل له راتبه بنفسه، وأن يحمل له دفتر التوقيع، لا بد أن ينتقي لأجله الأوراق النقدية الجديدة أو النظيفة على الأقل، ويرن جرس الهاتف، ويرفع السماعة، وإذا صوت المدير الأجش العريض كمنشار يحفر في أذنه: أحضر لي راتبي، وهات معك راتبك معه، دهش، لم يفهم شيئاً، وجاءه صوت المدير: وإلا فلماذا نقلتك إلى قسم المحاسبة؟ وعينتك على رواتب الموظفين؟ يكفي أن الثلث لي، وأن الثلثين لك، غمغم: ولكن، قاطعه على الفور: لا تقل ولكن، كل شيء محسوب، عندنا ثلاثمئة موظف، إذا ترك كل موظف ليرة واحدة مثلاً، فهذا يعني أنك حصلت منهم على ثلاثة أضعاف راتبك، فكيف إذا أنت اقتطعت بنفسك من كل منهم ليرتين أو ثلاث ليرات؟ بسرعة، تعال، ومعك راتبي، ومعه راتبك، وفي الشهر القادم قد أقول لك هات ضعف راتبك، لأنك في الشهر القادم سوف تقتطع من كل موظف مبلغاً أكبر، أنا أعرف كل شيء، لا شيء يغيب عني، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، المحاسب قبلك سار على الخطة نفسها، ولما حاول التململ شلناه، ووضعناك محله، هناك من ينتظر دوره في العمل نفسه.

٦٩. في الطريق إلى العاصمة (١)

ما إن اتخذ موضعه في المقعد إلى جواري، وقبل أن تنطلق بنا الحافلة حتى شرع يحدثني عن نفسه.

هو عجوز ناحل، لعله في الثمانين، قصير القامة، ضعيف البنية، عيناه باهتتان، خداه غائران، عظم فكيه بارز، مال عليّ وأخذ يحدثني.

"ولدي يعمل في العاصمة، انتقل إليها منذ أقل من سنة، ولكن كأنه ولد فيها، في أقل من سنة عرف الكبار والصغار، أعرفه شاطراً، لا أخاف عليه، بل أفتخر به، أصعب مشكلة يستطيع حلها، ابني أشطر من أكبر المحامين، أنا ربيته فأحسنت تربيته، وهو في السابعة من عمره أرسلته إلى سوق الحرامية، تعلم كل شيء هناك، مما يخطر على بالك ومما لا يخطر، نال الشهادة الإعدادية، وترك المدرسة، وبدأ نشاطه، وهو شاب ابن خمسة عشر عاماً كان يسير المعاملات، حيثما دخل سارت أموره، ثم نال الشهادة الثانوية بالدراسة الحرة، ثم انتسب بالمراسلة إلى كلية الحقوق، هو ليس بحاجة للشهادة، يعرف القوانين أكثر من المحامي، يستطيع أن يحل أي مشكلة، كبيرة أو صغيرة، ليس عنده مكتب، هذه بطاقة برقم هاتفه الجوال، يمكنك الاتصال به في أي وقت، وحيثما كنت، يستطيع حل أي مشكلة وهو في مكانه، بالهاتف يقضي كل الأمور، يكفي أن تقول له أنا من طرف والدك، لن يأخذ منك أي شيء، تكفيه هدية صغيرة، أنا والدي الله يرحمه رباني على الصدق والأمانة والإخلاص، رباني على الخوف، نالني ظلم كثير، ولكن عرفت كيف أربي أنا ابني على غير تربية أبي لي، تفضل هذه بطاقة ثانية برقم هاتفه، أعطها لمن تريد".

٧٠. العودة من العاصمة (٢)

في طريق العودة من العاصمة استقر إلى جواري شاب في نحو الثلاثين، ما إن انطلقت بنا الحافلة حتى أخرج من جيب سترته مصحفاً صغيراً، أخذ يتلو فيه بعينيه، من غير صوت، ولكن بعد قليل، التفت إلي وسأل: "هل تود أن أسمعك تلاوتي"، أشرت إليه بالموافقة، فأخذ يتلو علي سورة الرحمن بصوت خافت جداً، لكنه عذب رخيم، وهو يجوّد كأحسن ما يكون التجويد، وما إن فرغ منها، حتى استأذنني في العودة إلى التلاوة الصامتة، وعندما وصلت الحافلة إلى الاستراحة، دعوته إلى تناول فنجان قهوة، فاعتذر فهو صائم، فدهشت، وقلت له: "ولكننا لسنا في رمضان، وحتى لو كنا في رمضان فليس من البر الصيام في السفر، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"، تبسم ثم قال: "من حق المرء أن يفطر إذا سافر قبل الفجر، وأنا بدأت سفري ضحى، وهو لبضع ساعات، وليس إلى المغرب، وأنا أجد الراحة بالصوم في السفر"، ثم استأذنني ومضى إلى مصلى صغير، في الاستراحة، ورأيته يدخل فيه، وعندما عدنا إلى الحافلة قال لي: "هناك مكان للوضوء وفيه ماء ساخن، كنت أتمنى لو توجه الركاب كلهم إلى الصلاة، بدلاً من انشغالهم في الاستراحة بالقهوة والشاي والمأكولات، كنت متوضئاً، فأنا لا أخرج من بيتي إلا على وضوء، ولكنني جددت وضوئي، فشعرت بالراحة، وفي المصلى شعرت بالطمأنينة"، قبيل وصولنا إلى بلدتنا همس لي: "والدي، غفر الله له ورحمه، كان لا يصلي، ولا يصوم، كان مقصّراً، بل كان يرتكب الفواحش، وكنت أراه وأنا طفل يشرب الخمرة في البيت، وأمي، مدّ الله في عمرها، تنصح له، وهو يلومها ويوبخها، بل يضربها، أسأل الله له المغفرة".

٧١. الملكان

قال ملك الشطرنج الأبيض لصديقه ملك الشطرنج الأسود:

ـ أفكر في طريقة لا يموت فيها أي منا؟

أجابه صديقه ملك الشطرنج الأسود:

ـ ليس مهماً ألا نموت، فالكل سوف يموت، وستبقى الرقعة وتبقى اللعبة، ولكن المهم أن نكون آخر من يموت.

مرت فترة صمت قصيرة، انفجر بعدها ملك الشطرنج الأبيض ضاحكاً، قهقه عالياً، ثم قال:

ـ ما أغبانا نحن الاثنين، كيف نسيت يا صديقي، بل كيف نسيت أنا أيضاً، نحن لا نموت، لا أنا ولا أنت، نحن من أجلنا تقام اللعبة كلها، بل تجدد دائماً.

٧٢. سفرات أخرى إلى العاصمة

في أسفاري التالية إلى العاصمة بدأت أحجز موضعين، وأسافر في المقعد وحدي، ولا أحد إلى جواري.

٧٣. سميرة وسمارة

قالت سميرة لزوجها المعلم:

ـ أتمنى أن تنتهي عطلة الصيف، أتمنى أن ينتهي الصيف سريعاً، حتى تعود إلى المدرسة، ما عدت أطيق بقاءك إلى جانبي طوال اليوم.

وقالت أختها التوأم سمارة لزوجها سائق الشاحنة:

ـ أنا سعيدة بإضراب سائقي الشاحنات عن العمل، ليت الإضراب يطول، حتى تبقى إلى جانبي الوقت كله.

٧٤. رجل محترم

قال لي صديقي وهو إلى جواري في الحافلة:

ـ انظر إلى ذلك الرجل، هو رجل محترم من غير شك.

وقبل أن أسأله أخذ يتكلم:

ـ ذقنه حليقة، حذاؤه لامع.

قلت له:

ـ لعله مخادع محتال؟

أجاب مؤكداً:

ـ أنا نظرتي لا تخيب، قلت لك حذاؤه لا مع، ذقنه حليقة، انظر، قميصه جديد، شعره أشيب، ولكنه مسرح، ومدهون بمثبت شعر.

٧٥. صوت

وهو يمشي في السوق، جاءه صوت:

ـ لا تحسبها، محسوبة.

٧٦. وحدة عضوية

تناهى إلى سمعها عواء الذئاب.

أسرعت على الفور، انضم بعضها إلى بعضها الآخر، تكتلت، التصقت بالمناكب، تزاحمت بالأكتاف، شكلت وحدة متراصة، غدت كتلة واحدة، اتخذت شكل دائرة كبيرة، رؤوسها كلها نحو المركز، رؤوسها كلها نحو الأرض، الأكباش الكبيرة في الوسط، قرونها الطويلة المعقوفة المدببة متشابكة، تكاد تلامس الأرض، ظهورها، كل ظهورها إلى الخارج، نحو مصادر الصوت، وهي تحني رؤوسها نحو الأرض أكثر فأكثر، تكاد تدفنها في التراب.

ما تزال تدفع برؤوسها وأجسادها نحو المركز، ووراءها إلياتها الكبيرة السمينة الممتلئة بالدهن تترجرج.

اطمأنت ما عادت تسمع الصوت.

العواء أمسى أوضح، أقرب، أسرع.

٧٧. قوانين جديدة

مفكر عبقري، فكر طويلاً في تغيير قوانين اللعبة في الشطرنج، هل يمكن وضع الملك والوزير والحصانين والفيلين والقلعتين في المقدمة؟ هل يمكن وضع الجند في الصف الثاني؟ لماذا لا يحارب الملك والحاشية أولاً؟ لماذا لا يدافع هؤلاء عن أولئك؟ لماذا لا يموت الملك أولاً؟ لماذا لا يكون النصر ببقاء آخر الجند حياً؟

فكر في ذلك طويلاً، فكر في قوانين جديدة، حدث أهله، حدث أصحابه، فكر في تشكيل لجان وجمعيات ونواد لمساعدته على تغيير قوانين اللعبة، وصل الخبر إلى ملك الشطرنج، أرسل وراءه، سرّه التفكير، خصّص له غرفة صغيرة في القصر، وفّر له بعض ما يحفظ به حياته، أبعد عنه كل ما يمكن أن يشغله عن التفكير في أي أمر، بعد ردح من الزمن، في أواخر حياته، أخرجه، وقد أتقن نفس القوانين القديمة للعبة القديمة نفسها.

٧٨. رواية واحدة

يسألني صاحبي:

ـ إلى متى ستبقى هكذا تبعثر القصص؟

أجيبه:

ـ هي في الحقيقة رواية واحدة، ولكنني أكتبها مبعثرة، حاول جمعها أنت.

٧٩. أقوال

قال لهم:

ـ لا أعرف سر هذا الشقاء؟ لا أعرف الجرم الذي ارتكبته؟

قالوا له مازحين:

ـ كنت سبب موت أمك، ماتت وهي تضعك.

غمغم:

ـ بل أحمل جريرة جرمها الأسبق، يوم حملت بي.

٨٠. المستقبل

سألتها:

ـ ما المستقبل؟

أجابتني:

ـ الموت.

أنكرت عليها ذلك، ما صدقتها، قلت لها:

ـ بل المستقبل هو الأمل.

أجابتني:

ـ والأمل هو الموت.

ما صدقتها، كذبتها، انصرفت عنها مستاء، وأنا أنكر كل ما قالت.

كان ذلك قبل عشرين عاماً، واليوم أجدني، أكاد أصدقها.

٨١. مات

قال لها:

ـ حبنا أكبر منا، أقترح عليك أن نفترق الآن، باختيارنا، ونظل نحتفظ بالحب ذكرى.

أجابته:

ـ لن نفترق، ما دمنا أحياء، حتى الموت لن يفرّقنا.

وافترقا، ما يزالان على قيد الحياة، الحب وحده مات.

٨٢. التاريخ يعيد نفسه

ظهر دقلديانوس جديد، خرج أهل الكهف باركوا له في الحكم، أصبحوا في حاشيته.

٨٣. في علم الله

امتدت المحاضرة ساعة ونصف الساعة، وهو يتحدث فيها عن التاريخ والتراث ويدعو إلى إنشاء مراكز للبحوث في التراث في كل عاصمة عربية بل في كل مدينة وقرية.

في نهاية المحاضرة سأله أحدهم:

ـ لا أختلف معك في أهمية التراث، وضرورة إنشاء مراكز للبحث في التراث، ولكن ما رأيك في إنشاء مراكز للبحوث المستقبلية إلى جانب مراكز البحوث في التراث؟.

أجابه على الفور:

ـ لا يجوز البحث في المستقبل، لأنه في علم الله.

٨٤. صوت

يسير في الزحام، عيناه في موطئ قدميه، جاءه صوت:

ـ انظر إلى الأمام.

٨٥. مربع الملك

قفز الملك خارج الرقعة، خطب في الجند، تنازلت لكم عن مربعي الوحيد الذي لا أملك غيره، أنتم منذ الآن لا تدافعون عني، أنتم تدافعون

عن المربع الذي هو منذ الآن ملك لكم جميعاً، الرقعة كلها أصبحت لكم، وعليكم أن تذكروا دائماً أن سقوط هذا المربع يعني سقوط الرقعة كل الرقعة.

٨٦. الأديب الكبير

منذ أن كنت طفلاً كنت أراه كل يوم في التلفاز، الأديب الكبير، مقابلات وندوات ولقاءات وأخبار وسير وزيارات لبيته ومكتبته وللحي الذي يسكن فيه والمقهى الذي يقعد فيه ومقابلات ولقاءات مع أهله وصحبه، قبل رحيله وبعد رحيله، ومسابقات باسمه وإعلانات وأسماء شوارع ومدارس ومحلات، وإلى اليوم، ما أزال أراه كل يوم، من التلفاز الأبيض والأسود، إلى التلفاز الملون، إلى التلفاز المسطح، إلى البلازما، إلى التلفاز الثلاثي الأبعاد، كل يوم ما أزال أراه، هو نفسه، الأديب الكبير.

٨٧. سؤال غبي

حين كنا طلاباً في المرحلة الثانوية، قبل أربعين عاماً، كان أستاذ التاريخ يحدثنا عن مرحلة الحكم العثماني، فذكر أن أمين الريحاني قد وصف ذلك العهد فقال:"كان الناس يدفعون الخراج، ويأكلون الكرباج، ويعاملون معاملة النعاج"، وفجأة رفع أحد الطلاب يده، وسأل قبل أن يأذن له الأستاذ:" في أي عهد نحن الآن يا أستاذ؟"، فصرخ فيه الأستاذ بحدة قائلاً:"سؤال غبي، من طالب غبي"، ثم أمره ألا يسأل بعد ذلك أي سؤال.

٨٨. مقابلة

قابله مصادفة، فقال له:

ـ امش، ولا تقل كلمتك.

دهش، قال له:

ـ أعرف السيد المسيح، وقد قال خلاف ما قلت.

رد عليه:

ـ أعرف ذلك، وأنا عن قصد قلت لك خلاف ما قال.

دهش، سأله:

ـ ولماذا؟ هل تريد أن تخدعني؟

رد عليه:

ـ لا، ولكن رأيتك تفعل خلاف ما قال السيد المسيح، لذلك قلت لك خلاف ما قال، فلعلك تفعل خلاف ما قلت.

ضحك كثيراً وقال له:

ـ وهل تظنني إلى هذه الدرجة من الغباء؟؟

٨٩. الاقتراح الأخير

أسرع إلى لقائه أهل القرية جميعاً، وانهالوا عليه بالاقتراحات:

ـ ابن لنا مدرسة جديدة.

ـ ابن لنا مستشفى.

ـ احفر لنا بئراً.

ـ مد لنا شبكة مياه.

ـ ابن لنا سوقاً تجارية.

ـ ابن لنا شبكة صرف صحي.

وتكلم أخيراً:

ـ عندي مشروع أكبر وأوسع، بفضل مشروعي سوف تتحقق كل مشروعاتكم، نحن بحاجة إلى تطوير القرية، يجب أن ننفتح على العالم،يجب نستفيد من اليد العاملة، سنلجأ إلى الصناعة، صناعة السياحة، ريفنا جميل، ومنطقتنا غنية بالآثار، وشعبنا مضياف كريم، مجيء السواح إلى منطقتنا سيجعل منها جنة، سنعرف شعوب العالم، ونطلع على عاداتهم، سوف أبني لكم فندقاً فخماً، سأرصد له مليارين، سيعمل في بنائه خمسمئة عامل، يعيلون خمسمئة أسرة، ثم سيعمل فيه ألف موظف، يعيلون ألف أسرة، وسوف تفتتح لأجل السواح الأسواق والمحلات والمطاعم، ومع المستقبل ستصبح كل دار من دوركم فندقاً خاصاً يستقبل السائحين، ستتعلمون لغات

كثيرة، وتعرفون العالم كله وأنتم في قريتكم، سيتغير وجه المنطقة كلها، سننتمي إلى هذا العصر، كفانا تخلفاً وتقوقعاً وانحباساً وانغلاقاً، سننفتح على العالم كله.

٩٠. قصتي أنا

أ ح م د زي اد م ح ب ك

٩١. سقط التاج

لا مقابلات، لا لقاءات، لا دعوات لسهرة، لا صور جديدة في الصحف والمجلات، مرّ العام، سقط التاج، لم تعد ملكة جمال العالم.

٩٢. مجرد جواب

ألتقيه عند المنعطف مصادفة، فيسألني عن أبو محمود، فأجيبه:"مات"، فتنهال علي أسئلته: متى مات؟ وكيف؟ في البيت أو في المستشفى؟ وما مرضه؟ وهل عني به أبناؤه أو تركوه؟ وهل شارك المدير في تشييعه والزملاء، وهل كنت إلى جانبه؟ ولماذا لم أخبره؟، فأجيبه: اعذرني حسبتك تسألني عن زميلنا أبو محمود في الديوان، أنت تسألني عن أبو محمود زميلنا في المستودع، الرجل ما يزال على قيد الحياة، وبموفور عافيته، فتنهال علي أسألته: كم بلغ من العمر؟ وهل سيحال على التقاعد؟ وكيف هي علاقته بزملائه وبالمدير، وهل ما يزال كما كان مرحاً وهل عاد ولده من السفر، وهل أنجبت ابنته التي تزوجها زميلها في العمل ومرت خمس سنين ولم تنجب، هل طلقها زوجها؟

أجيبه وأنا أشد على يده: ماتت واستراحت، ثم أغادره قبل أن يسألني عنها، ما هو مرضها وكيف ماتت؟ وهل ماتت وهي حامل أو غير حامل؟ وهل تزوج زوجها؟ وأنا في الحقيقة لست متأكداً إن كانت هي الآن حامل أو غير حامل، لأنني لست متأكداً من موتها، ولا من حياتها، إنما هو مجرد جواب.

٩٣. هل تعرف لماذا؟

سأله جده: لماذا تضع على عينيك نظارة سوداء يا ولدي؟ لترد الشمس عن عينيك؟ أجاب: لا، لتخفي عينيك؟ لترهب الناس؟ لتبدو رجلاً مهماً؟ لتبدو رجلاً غامضاً؟ لتنظر في الناس من غير أن يعرفوا أنك تنظر فيهم؟ لتظهر بمظهر رجل عظيم أو مهم أو خطير أو مسؤول؟ لتكون مثل ممثل شهير أنت معجب به؟ لتفتن صبية تحبها؟ أجاب: لا، لا، إذن، لتخفي قبح عينيك؟ وأعرف عينيك جميلتين؟ لتخفي القيح المتجمع في مؤق عينيك؟ أو لأن عينيك تدمعان دائماً، وأعرف عينيك سليمتين؟ لترى الدنيا سوداء؟ لتراها بنية؟ لتحرم عينيك من الألوان الرائعة للطبيعة؟ لتبدو كالأعمى، وأنت مبصر؟ دائماً كان يجيب: لا، لا، لا، إذن، لتحرف رؤيتك؟ لينكسر الضوء عبر زجاج النظارة ويدخل إلى عينيك مائلاً فيؤذيهما؟ أجاب أيضاً: لا، لأن لديك نقوداً تريد إنفاقها، أو لأن صديقاً أهداك إياها؟ ضحك وقال: لا، هل تعرف لماذا تضع نظارة شمسية قاتمة، أجاب: لا، غمغم الجد وقال: الحمد لله، بلغت الثمانين وما احتجت إلى نظارة، لا طبية ولا شمسية.

٩٤. أين المشط؟

الشعر على جانبَيْ رأسهم مسحوب إلى الأمام، أطرافه متنافرة مثل القنفذ، الشعر فوق قمة الرأس مستنفر إلى الأعلى، كأنه عرف الديك، هكذا رآهم، وهم يقفون على ناصية الرصيف، أمام ثانوية البنات، كانوا ثلاثة أو أربعة، دون الخامسة عشرة، توقف بخطواته البطيئة، قال لهم: "يا أولادي، أما أحد منكم معه مشط لتسرحوا به شعوركم! هل يبخل عليكم أهلكم بأجرة الحلاقة؟!" ضحكوا، ضحكوا كثيراً، ومضى يجر خطواته، يتكئ على عصاه، وهو يغمغم: "والله يوم كنت في عمركم كان جيبي لا يخلو من مشط، كنت أذهب إلى الحلاق كل أسبوع، لا أخرج من البيت إلا وشعري مسرّح ولامع".

٩٥. لا أعرف

سألها الجد: لماذا تخرجين هكذا إلى الشارع يابنتي؟ كأنك عارية؟ صمتت، ولم تجب، سألها: ليرضى عنك الشباب؟ لتفتني أحدهم ويتقدم إلى خطبتك؟ أجابت: لا، ليرضى عنك الله أو الشيطان؟ أجابت: لا، كلاهما غير راض عني، لتكوني مثل ممثلة أنت معجبة بها؟ أجابت مستنكرة: لا، لا أريد أن أكون مثل أي ممثلة ولا أي صبية، لتظهري فاتنة أو جميلة؟ ردت بعصبية: أنا فاتنة وجميلة ولو ارتديت زي جدتي، لتتبعي آخر زي تعلن عنه صحف الأزياء؟ أجابت بحدة أشد: لا، أنا لا أتبع أي زي، إذن هل يمكن أن تخبريني لماذا تخرجين إلى الشارع هكذا؟ أجابت: لا أعرف.

٩٦. ما معنى هذا؟

سأل الجد حفيده قبل أن يخرج إلى الشارع: هل تعرف يا ولدي معنى الكلمة المكتوبة على قميصك من وراء؟ التفت إلى جده، نظر إليه مدهوشاً، حاول شد قميصه من وراء إلى أمام، ليرى الكلمة، ثم قال: لا أعرف، هكذا اشتريته يوم أمس، أجاب الجد: هذه الكلمة بالإنكليزية، وتعني يا ولدي: قمامة، ضحك الحفيد، وقال: هذا أجمل، ثم أدار ظهره إلى جده، وخرج.

٩٧. أنا لك

وهي تقطع الشارع عند إشارة المرور، تنبهت إليه يقف عند الإشارة، مدهوشاً، لا يقطع الشارع، يحدق في قميصها المشدود على صدرها، وقفت أمامه، وقالت له متحدية ساخرة: هل أعجبك القميص؟ أجابها بهدوء: والله كنت أحاول قراءة الكلمتين المكتوبتين على القميص بهذه الحروف الأجنبية، وأسأل نفسي ما معناهما، أجابت: هما for you، ومعناهما، إذا أردت أن تعرف، أنا لك، طبعاً ليس أنت بالذات، هل فهمت، ثم تركته ويده على عصاه ترتعش.

٩٨. في البيت

قال الجد لأولاده: لن أذهب بعد اليوم إلى الجامع يوم الجمعة للصلاة، سأصلي في البيت، لن أتعبكم بعد اليوم، قال له أحفاده: عرضنا عليك هذا من قبل فرفضت، نحن نريد لك الراحة، لا نريد تعبك، أجابهم : ليس هذا هو السبب، أتمنى لو عرفتم السبب يا أولادي، وقبل أن يسألوه، كان يتكلم: ما عدت أطيق رؤية بعض المصلين: هذا يأتي بثياب النوم المجعدة، وأخر يأتي بقميص لم يغسل منذ سنة، ومرض في المستشفى يأتي بقميص بنفسجي أو أخضر مما يلبسه المرضون، ورائحة الأدوية تفوح منه، كأنه خارج من غرفة العمليات، وعامل دهان يأتي بثياب العمل وقد ترك للتو سطل الدهان، والأسوأ من هذا كله، لو عرفتم السبب الحقيقي، أقف للصلاة، فلا أكاد أخشع، لأني أنشغل بقراءة الكلمات الأجنبية المكتوبة على ظهور قمصان معظم المصلين، وأحار في فهمها، لا أعرف كيف يأتي بعض المصلين إلى الجامع للصلاة بمثل تلك المظاهر، سأصلي بعد اليوم في البيت.

٩٩. الدنيا بخير

قبل أن أرسل هذه القصص إلى الجريدة عرضتها على جدي، قرأها وضحك كثيراً، وحين أخبرته أنني سأرسلها إلى الجريدة،قال: أخشى أن يكتب عليها المحرر: غير صالحة للنشر، قلت له: أنا واثق من نشرها، سألني: وهل المحرر عجوز مثلي؟ أجبته: بل هو شاب، ولكنه ليس مثل أولئك الشباب، الدنيا بخير، يا جدي.

١٠٠. الآه

أصغي إلى النغم، اللحن ينساب في الروح، الصوت يهل علي مثل الطل، أدخل في السراب، أمضي مع زورق تائه في الأفق، تحملني معها سحابة، يرف في القلب طائر خلق للتو، من فصيلة جديدة، وتعلو الآه، من مستمع آخر، مثلي، كأنه أنا، أنا كأني هو، بالآه المطلقة يكتمل النغم.

١٠١. عزيمة

قبل دعوة صديقه، وتوجها معاً إلى المطعم، وما إن فتح الباب وهمّ بالدخول حتى فوجئ، أرض المطعم رقعة شطرنج كبيرة، وهو الذي يكره الشطرنج، هم بالرجوع، الجوع قرصه، أخذ يسير بحذق فوق المربعات البيض.

١٠٢. مراحل

رن جرس الهاتف، رفع السماعة، وجاءه الصوت: "ستلقي اليوم عند الساعة السابعة كلمة ترحيبية في استقبال المسؤول الجديد، أنت دائماً عريف الحفل"، رد على الفور: "هل أقول هو من منبت فقير، وكان أبوه فلاحاً عند الإقطاعي"، جاءه الصوت عالياً: "لا"، رد: "والله حرت في أمري، في مرحلة سابقة..."، قاطعه الصوت عبر الهاتف: "لا تقل في مرحلة سابقة، نحن أبناء هذه المرحلة"، سأل بتواضع وانصياع: "ماذا سأقول؟ هل أعود إلى القول كان أبوه من الإقطاعيين الكبار؟"، جاءه الصوت مجلجلا: "لا، قل عنه: هو نفسه من الإقطاعيين الجدد الكبار".

١٠٣. مصادفة

التقاه مصادفة كالعادة، قال له: "عندما أحتاج إليك لا أجدك، وعندما لا أحتاج إليك أراك"، أجابه: "أنا معك دائماً، ولكنك لا تفكر بي

وقت حاجتك الحقيقية لي، ولذلك أنا أتعرض لك، فتظن أنك التقيتني مصادفة، وليس ثمة مصادفة في الحقيقة، إنما هو تخطيط وتدبير".
دهش، قال له: "لا أصدق، بالأمس كنت عند البائع ولم يصدق أنه أخطأ معي في المحاسبة، ردّ إلي من النقود أقل مما كان يجب أن يرد، بل أعطاني نقوداً مزيفة، وقد طلبتك ولم أجدك". أجابه: "والآن أنت ذاهب إلى البائع نفسه وأنت تضمر له الشر، أنت الآن بحاجة حقيقية إلى لقائي، أليس كذلك؟". عقد لسانه، دهش، قال له: "سامحه، عد فوراً من حيث أتيت".

١٠٤. سر النجاح

ـ أريد أن تقول لي بصراحة، ما هو رأيهم؟

ـ أكثرهم لا يحبك.

ـ قل كلهم، لا يهمني، ولكن، قل لي: ماذا يقولون عني؟

ـ مغرور، متكبر، عنيد، قاس، ظالم.

ـ هذا صحيح، وهذا ما أفخر به، أنا لا أريد أن يحبوني، أريد أن يخافوا مني، وليكرهوني إذا شاؤوا.

١٠٥. قصصكم أنتم

يسألني الأصدقاء:

ـ أي قصة هي قصتك أنت؟

أجيبهم:

ـ هي كلها ليست قصصي أنا، هي كلها قصصكم أنتم.

١٠٦. دعوة إلى السفر

ذهب إلى جده يستشيره، فقال له الجد: "يبدو أنك قد اتخذت قرارك، ولا جدوى من مشاورتي في الأمر، وهذا من حقك، ولكن قبل أن تقدم على الزواج من امرأة ثانية، اسأل نفسك: هل أقبّل زوجتي كل يوم صباحاً؟ هل أتناول معها طعام الفطور؟ أو هل أشرب معها قهوة الصباح؟ هل أنظر في عينيها قبل خروجي من البيت؟ وأنا أسألك: هل تحدثها عن عملك؟ هل تخبرها قبل يومين أن لديك سهرة مع الأصدقاء أم هل تخرج إلى الموعد من غير أن تعرف إلى أين أنت ذاهب؟ هل تخرج معها في نزهة يوم العطلة؟ أنا أنصح لك قبل أن تقدم على الزواج من امرأة ثانية أن تذهب مع زوجتك في إجازة لأسبوع واحد خارج الوطن، وأن تنزلا في أي فندق عادي بسيط أسبوعاً واحداً، وأن تبقيا معاً لأسبوع واحد، ليحاول كل منكما اكتشاف الآخر، ومعرفته عن قرب".

١٠٧. بعد الخمسين

الآن، وبعد أن بلغ الستين، أيقن أن الصدق والوفاء والأمانة والإخلاص والطيبة والنقاء معان لا رصيد لها في الواقع، وأن السائد بصراحة وباختصار هو كل ما خلاف ذلك، هذا ما عرفه أخيراً وأيقن به وصدقه، وكان طوال عمره لا يصدق، عرف ذلك وأيقن، ولكنه لن يتغير، ولن يفعل خلاف ما فعله طوال حياته، ولا يريد لأولاده إلا أن يكونوا مثله.

١٠٨. سأبقى أنتظر

أصيص فخاري أنيق، فاخر جداً، ورثته عن جدي، ملأته تربة حمراء نقية صافية خصبة جداً، غرست فيه شجيرة ورد، وضعتها في الشرفة، الهواء الغربي ينعشها، الشمس تدفئها، ضربت جذورها في الأعماق، اخضوضرت، وامتد ظلها، بماء نقي صاف سقيتها، كدت أطحن لها اللوز والسكر، كي أطعمها به، كل يوم أقعد في الشرفة مساء، أتخذ موضعي قبالتها، بأصابعي أقلب تربتها، أبث فيها دفء أصابعي ونبض القلب، أسقيها بماء الورد، وإلى الآن لم يظهر فيها أي برعم، سأبقى أنتظر.

١٠٩. حكاية متجددة

قال الملك لحاشيته: " أفكر بقطع أشجار الغابة كلها في مطلع الشتاء القادم"، وعزفت الحاشية النشيد:

ـ الغابة مأوى اللصوص والمتمردين

ـ قطع الأشجار يخلصنا من الغربان والحشرات والهوام والنمل

ـ سنستفيد من الأخشاب ونجدد أثاث المنازل.

وفي صباح اليوم التالي بدأت الصحف تنشر دراسات عن أضرار الغابة وفوائد قطع الأشجار، وبدأت القنوات الفضائية تبث برامج بهذا

الخصوص وتعقد الندوات، وأخذ مديرو المعامل والمؤسسات والمدارس بعقد ندوات توعية تؤكد كلها أضرار الغابة وفوائد قطع الأشجار، وأخذت معامل الحديد والصلب بصب الفؤوس وسن المناشير الحديدية وتطوع كثير من العمال لقطع الأشجار، وبادر بعضهم إلى قطع الأشجار وساروا بها إلى قصر الملك، واستولى وزير الميسرة على كثير من الحقول المشجرة وبادر إلى قطع ما فيها من أشجار الزيتون والتفاح والبرتقال تنفيذاً لتوصية الملك.

مع مطلع الشتاء جمع الملك الحاشية، وقال لهم: "سمعت أن الشجرة مفيدة وأن الغابات تجلب الأمطار"، ولم يكد يتم جملته حتى انطلقت جوقة الوزراء والحاشية تسرد فوائد الغابة وأهمية غرس الأشجار.

واستنفرت الإذاعات والفضائيات وانطلق مديرو المدارس والمعامل والمؤسسات والجمعيات والروابط كلها تبث الوعي وتؤكد أهمية الغابة.

واستولى وزير الميمنة على كثير من الأراضي غير المشجرة لتنفيذ توصية الملك بتشجيرها.

١١٠. مقدمة الحفل

قال المدير العام للمشرف على الحفل السنوي:

ـ هل اخترت مقدمة البرامج؟.

ـ هي نفسها، تلك الموظفة عندنا في البريد الصادر، بليغة وفصيحة وذكية، تتقيد بالنص، لا تخطئ، لا تطيل، صوتها قوي وجميل، طولها جيد، وحضورها الفني ممتاز.

أجابه المدير:

ـ رشح لي غيرها.

يذكر له عدة أسماء فيرفضها، فيعود المشرف العام ليقول له:

ـ لن نجد خيراً من الموظفة في البريد الصادر، ما قصرت العام الماضي في شيء، عرضنا عليها مبلغاً جيداً لشراء ما يناسب الحفل من ثياب، فرفضت أن تأخذ، واشترت من راتبها ثياباً أنيقة ومحتشمة، حتى بعد الحفل رفضت أن تأخذ أي ليرة مكافأة.

يعلق المدير:

ـ لا بد أن أصارحك، عاتبني العام الماضي بعض المسؤولين .

ويسأل المشرف:

ـ ولكنها تقيدت بالنص، حفظته غيباً، ولم تخرج عنه ولو بحرف، ذاكرتها قوية، لن نجد خيراً منها.

يغمغم المدير كارهاً:

ـ لا بأس، كلّفها بتقديم فقرات الحفل، واطلب منها شراء ما يناسب من ثياب، أعطها حتى لو رفضت، ولكن كلمة محتشمة هذه حاول أنت تقنعها بغيرها.

١١١. آراء بعض القرّاء

ـ ليلة أمس قرأت مجموعتك الأخيرة، وأظن أني وجدت فيها بعض الأخطاء اللغوية، ما كنت أتوقع أن تظهر في أسلوبك، وللأسف لا أستطيع أن أتذكرها الآن.

ـ قرأت قصتين من مجموعتك الأخيرة، ثم أعطيتها لابنتي، وهي في الشهادة الإعدادية، حتى تستفيد من أسلوبها.

ـ ما كنت أتوقع أن تتكلم في مجموعتك الأخيرة بمثل هذه الصراحة عن قضايا جنسية صريحة ومخجلة للأسف.

ـ أعجبني غلاف المجموعة الأخيرة، هو ملون وصادق في التعبير، وإخراجه جيد.

ـ هل جرت معك كل تلك القصص حقيقة، أم هي من الخيال؟؟

ـ هذه ليست قصصاً، هذه طرائف تصلح أن تكتب على أوراق الرزنامة ليطالع القارئ في صباح كل يوم طرفة جديدة.

ـ لا جديد في قصصك، أنت تنقل من الواقع.

وتقول قارئة:

ـ قرأت قصصك كلها، وحفظت بعض أقوالك فيها، كلمة كلمة.

١١٢. الحظ هو الحظ

يكاد يصفق ويهزج، يهم بالرقص مختالاً، يسير وهو يشير بيديه طولاً وعرضاً.

"ربحت ربحت، والله العظيم ربحت، مرة واحدة في العمر ربحت، بعد سبعة وثلاثين عاماً من شراء أوراق الحظ ربحت، وأنا في سن العشرين بدأت شراء أوراق الحظ، واليوم بعد سبعة وثلاثين عاماً أربح، ,أنا على مشارف الستين أربح، اشتريت بطاقات من كل المحافظات، ما من

محافظة زرتها إلا اشتريت فيها بطاقة، حتى القرى بحثت فيها عن بائعين واشتريت منهم، من بائع أعمى اشتريت، من طفل صغير اشتريت، من عجوز شائخ اشتريت، قبل إعلان النتائج بيوم اشتريت، قبل ساعة واحدة اشتريت، أرقاماً مفردة اشتريت، أرقاماً مزدوجة اشتريت، ما مر أسبوع إلا اشتريت، اليوم بعد سبعة وعشرين عاماً من الخسائر الكلية الشاملة أربح، واتاني الحظ، أربح مرة واحدة في العمر، هي ضربة العمر، أقسم أن لن أشتري بعدها أي بطاقة".

ويتابع خطاه نحو مركز توزيع الجوائز، وقبل أن يبلغه، ببضع خطوات، يمزقها، يفتتها، قطعاً قطعاً، كحبات الأرز، ينثرها، يطيّرها، تتساقط على الرصيف، يبعثرها بقدمه.

يلتفت إليه أحد المارين، يسأله بسخرية:

ـ يبدو أنك كالعادة خسرت.

يرد مبتهجاً فرحاً كأنه يغرّد أو يغني:

ـ ربحت والله ربحت والله ربحت.

يسأله الرجل:

ـ عقلك ما تحمل خبر الربح؟ يبدو أنك ربحت الجائزة الأولى، مئة مليون، الله يحمي عقلك.

يضحك، يقهقه، يصمت فجأة، يكاد الدمع ينفجر من عينيه:

ـ بعد سبعة وثلاثين عاماً، منذ أن كنت في العشرين، وأنا أشتري أوراق الحظ، كل أسبوع أشتريها، وكل أسبوع أخسر، هذه أول مرة أربح فيها، ربحت، ربحت مئة ليرة فقط، ثمن البطاقة.

١١٣. أين الحروف والكلمات؟

فتحت الكتاب، وإذا صفحاته بيضاء، قلّبتها كلها، وإذا هي بيضاء، فتحت كتاباً ثانياً وثالثاً ورابعاً، وضعت السلم وصعدت إلى الرف الأخير، فتحت الكتب كلها، وإذا هي بيضاء، كل الكتب بيضاء الصفحات ولا كلمة فيها ولا حرف.

صعقت، سألت أصدقائي، فاجؤوني بما فاجأتهم به، رفعت سماعة الهاتف، اتصلت بدار الكتب الوطنية، بباعة الكتب، بالمراكز والمؤسسات الثقافية كلها، بكل من أعرف أن لديه مكتبة، وإذا الكتب كلها أصبحت صفحاتها بيضاء، سألت عن السبب، وكان الجواب موجات البث التلفزيوني، موجات القنوات الفضائية، موجات الهواتف النقالة كلها محت الكلمات والحروف من الكتب، وضعت يدي على جبيني وسألت: والدماغ، هل محيت منه الحروف، هل محيت من المسلات وجدران القصور والمعابد، صحت: "ما الحل؟" وجاء الصوت: "ارفع الغطاء عن رأسك، افتح عينيك، استيقظ، اصح من النوم".

١١٤. زوبعة في فنجان

قصة، طرفة، أحدوثة، خبر، حوارية، لقطة، مشهد، حلم، كلمة، موعظة، تحليل، تعليق، كذبة، نادرة، واقعة، حكمة، شعر، كلمات، بعثرة، حدث، شخصية، لا حدث، لا شخصية، لا قصة ولا قصيرة، كتبها من قبل الجاحظ والأصمعي وجبران، كتبوا أفضل منها، أو لم يكتبوها، لم تستقر، لم تنضج، لم توضع لها بعد القواعد والمقاييس والقوانين، لا مقاييس، ولا قواعد، ولا قوانين، تركنا المقاييس للأحذية، تركنا القواعد والقوانين للحكام وللتجار كي يغيروها ساعة شاؤوا، هي خليط ومزيج، هي غير هذا وغير ذاك، هي هذيان، شئت أم أبيت، قل عنها ما شئت، زوبعة في فنجان، هي القصة القصيرة جداً.

١١٥. حفيدي يشبهني

حفيدي ينام في حضن ابنتي، يده الصغيرة الناعمة على صدرها الدافئ، ينام هانئاً مطمئناً.

تقول لها زوجتي:

ـ ضعيه في سريره، لا تعوديه على النوم في حضنك.

تجيبها ابنتي:

ـ لم أعوّده، هو هكذا منذ أيامه الأولى.

تعلق زوجتي:

ـ ورث من جده كل شيء.

١١٦. تكريم

قال المدير لمعاونه:

ـ وصلنا اليوم كتاب من الوزير يدعو إلى تكريم أحد العاملين في المؤسسة لهذا العام.

فكر المعاون قليلاً، ثم قال:

ـ عماد.

رد المدير على الفور:

ـ هذا شاب، لم يمض على عمله في المؤسسة سوى ثلاث سنوات، لم يقدم أي شيء.

علق المعاون على الفور:

ـ بشير

رد المدير على الفور أيضاً:

ـ هذا شيخ عجوز، عمل في المؤسسة أكثر من ثلاثين عاماً، لم يبق لديه أي شيء ليقدمه، لا يستحق التكريم.

صمت المعاون، ثم أضاف:

ـ نعتذر عن التكريم هذا العام.

علق المدير:

ـ بل نكرمك أنت.

رد المعاون على الفور:

ـ أنت في الواقع أولى مني بالتكريم.

١١٧. في العناية القلبية

أتوجه وصديقي أحمد إلى المستشفى لزيارة صديقنا محمود، نسأل عنه في الاستعلامات، الحاسوب لا يعمل، اقتحمه فيروس، الموظفة تبحث في السجلات، وهي تسألنا عن اسمه الثلاثي وعمره ومرضه ومن أحضره إلى المستشفى ومتى؟ ثم تعلمنا أنه في العناية القلبية المشددة، في الطابق السابع، ونتوجه إلى المصعد، فنجد ورقة لصقت على باب المصعد كتب عليها:" لا يعمل ".

أقول لصديقي:

ـ بالأمس زرت دار القضاء، وكان المصعد لا يعمل، وقبل أسبوع زرت كلية العلوم في الجامعة وكان المصعد لا يعمل، وفي مقر الجريدة المصعد لا يعمل، وفي مديرية المالية حيث المراجعون كثر المصعد لا يعمل، وفي العمارة التي أسكنها المصعد لا يعمل، ترى أين المصاعد التي تعمل؟

ضحك صديقي وأجاب:

ـ في الأسواق الكبيرة أدراج كهربائية متحركة ومصاعد زجاجية مثل كؤوس العسل دائماً، ليل نهار، وهي تعمل، لا تتعطل أبداً.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ سنصعد الدرج على أقدامنا.

ـ ومتى سنصل؟

ـ أن تصل متأخراً خير من ألا تتصل.

ـ أخشى أن أصاب بنوبة قلبية وأنا على الدرج. ـ فليكن، ليس هناك أي مشكلة، ستلقى الاهتمام فوراً، فنحن نصعد إلى العناية القلبية المشددة.

أقول لصديقي:

ـ علينا أن نعجل إذن، حتى نصل في الوقت المناسب، قبل أن تصيبنا النوبة القلبية ونحن على الدرج.

١١٨. أسلاك ناقلة

سيارتان تقفان أمام الرصيف، وجه كل منهما نحو الأخرى، وقد رفع الغطاء، وأسلاك تصل بين البطاريتين.

وأسلاك أخرى تصل بين قلبينا، أنا وزوجتي.

١١٩. أبحث عن جدي

حتى الآن، وأنا في الستين، كلما رأيت فيلماً عن الحرب، أبحث في المقاتلين عن وجه جدي. كانت جدتي قد حدثتني، قبل خمسين عاماً، وأنا طفل، عن جدي الذي سيق إلى حرب سفر برلك ولم يعد.

١٢٠. متابعة الرحلة

هي إلى جواري في الحافلة، ألتصق بها، أميل عليها، أدنو بوجهي منها، تدنو هي مني بوجهها، أشم أنفاسها العطرة، تهم الشفاه باللقاء، أحس بالدفء الناعم، ويلتفت السائق إليّ بوجه متجهم، وعينين مفترستين، يدوس على المكابح، ترنّ الحافلة، ينتفض جسمي كله، أفتح عيني، ويطير الحلم.

أرفع اللحاف فوق رأسي، أغمض عيني، أحاول متابعة الرحلة في الحافلة.

١٢١. في الواقع

ونحن نتناول العشاء، كانت الراقصة على المنصة تتلوى، ثم انفلتت تطوف بين الموائد، وفجأة حطت أمامنا، وأخذت تهز ثدييها شبه العاريين، طالما رأيت مثل هذا المشهد في الأفلام والمسلسلات وطالما تابعته، بل طالما رأيته في الصور، وكنت أبحث عنها وأشتريها، والآن أول مرة أرى هذا المشهد في الواقع عياناً أمامي.

وضعت الشوكة والسكين، مسحت فمي بالمنديل، ابتلعت بصعوبة اللقمة التي كانت في فمي، نهضت من أمام المائدة، ومن غير أن أعتذر من أصحابي، غادرت المطعم.

١٢٢. قصة ضعيفة جداً

إلى مقصف راق جداً ما كنت أعرف أن في مدينتي مثله، دعتني، وأبت أن نقعد متقابلين حول مائدة، أصرت على أن نقعد على أريكة واحدة متقاربين جداً، كي تتمكن هي بنفسها من قراءة القصة عليّ، عرضت أنا عليها أن أقرأها بالعينين قراءة صامتة، كي أستوعبها، وأتمكن من نقدها، ولكنها أصرت أن تقرأها هي بنفسها، كي أصحح لها القراءة، وكانت تمسك الورقة بيدها، وتضعها بيننا، وتقترب مني بعفوية، كي أرى القصة معها، وأتابعها أيضاً، أخذت تغرّد مثل عصفورة، وهي تكاد تلتصق بي، أنفاسها العطرة تصلني مع الكلمات، ما كنت أعرف أن مثل تلك المقاصف الحديثة تحتوي على أرائك يمكن أن يقعد فيها اثنان متقاربين، وحولهما وسائد من ريش نعام، قدمت لي شراباً ما عرفت طبيعته، أكدت لي أنه غير مسكر، تمنيت حقيقة لو تطلب لي منه كأساً أخرى، عرضت علي ذلك، ولكنني اعتذرت، ثم أبت إلا أن تدفع هي، دفعت مبلغاً ليس بالهين، فاجأتني، سررت لإصرارها على أن تدفع هي بعد أن رأيت المبلغ، كان الشراب مجرد كأسين صغيرتين، ولم أستطع حفظ اسم الشراب، كأنه اسم بلد، ما عدت أذكره، بل لم أحفظه، اتصلت بي بالهاتف، وطلبت أن نلتقي في ذلك المقصف، كي تقرأ عليّ قصتها، ولتسمع رأيي فيها، طبعاً تقصد قصتها، فهي ستلقيها يوم غد في أمسية قصصية، أمام باب المقصف وجدتها تنتظرني، ما عرفتها أول وهلة، كأنها ليست هي، مع أنني أعرفها جيداً، نضرة، متألقة، خرجت للتو من بركة عطر، يدها وهي تصافحني موسيقا، شعرها خمرة أبي نواس، كأنها جاءت إلى سهرة خاصة جداً متميزة، وفي داخل المقصف، وهي تقرأ، ما تركت للأسف خطأ لغوياً أو إعرابياً أو نحوياً إلا وقعت فيه، وأنا تقمصني سيبويه والخليل، أو تقمصتهما أنا، كأن روحهما حلت بي، وغدوت عباس العقاد وهو ينتقد أحمد شوقي أقسى الانتقاد، لا أعرف كيف تفجّرت مواهبي النقدية بل الانتقادية الصارمة جداً، الشخصيات ضعيفة البناء، العقدة مفككة، النهاية غير مقنعة، وغير مدهشة، باهتة، بل غدوت الحاج والواعظ والراهب المتبتل والقديس الناسك المتعبد، القصة غير مناسبة للقراءة على الجمهور، فهي فاحشة جداً، بل إباحية، لا أنصح لك بقراءتها، هذا ما قلته لها، ونحن نغادر المقصف ألحت علي كي توصلني إلى البيت بسيارة أجرة، اعتذرت، أكدت لها رغبتي في المشي، قالت سأرافقك إلى البيت، قلت لها إنني أرغب في السير وحدي، في الطريق عدت وحدي، أجر خطواتي، عمارات خانقة، زوابع تثير الغبار والأتربة، أعمدة النور باهتة، مجرد قضبان، لا عطر ولا همسات ولا وسائد من ريش نعام، ألتفت، أتعثر، ليتني أرجع لأقول لها خلاف كل ما قلته، هل يمكن أن تدعوني ثانية لتقرأ علي قصة جديدة؟.

١٢٣. مصادفة

التقاه كعادته مصادفة وهو في الحافلة، فقال له: أنا هذه المرة سوف أسألك، أعرف أنني مذنب، وأن ما أقوم به حرام، لا يقبل به الدين ولا الخلق ولا العرف، وأنا أفعله واعياً وعن قصد لا عن جهالة، وفي كل مرة أندم، وأقول سوف أتوب، ولكن أعود إلى فعله، لا أستطيع التوبة والإقلاع عنه، ولكن ذات يوم سوف أتوب وأترك هذا الفعل، فهل سيقبل ربي توبتي؟ ضحك وأجابه: سيقبلها في كل وقت، ولكن لا تؤجل التوبة، عجل بها.

١٢٤. الدمى

كل يوم أمر بالشارع مساء، فأرى الدمى في واجهة المحلات واقفة ساكنة لا تتحرك وراء الزجاج المتألق تحت الأضواء تعرض آخر الأزياء.

اليوم رأيت الدمى تسير على الرصيف تعرض آخر الأزياء.

١٢٥. أسماء سميتموها

أوبشن، إكسبلوشن، تش، بلو لاين، بلاك أند وايت، سكاي روز، شيكاغو، نيو فاشيون، لوليتا، هت دوك، أولد فريند، ماي كالور، غولدن ستار، ميامي، إفري ديي، توب وان، سيف واي، جست لوك، ماي فير ليدي، بيوتي، ماي هوم، لاست ستايل.
هذه أسماء محلات عربية.

١٢٦. خسارة مؤكدة

ذهبت وصديقي على طول الشارع وجئت، الشارع يتوسط المدينة، ويمتد على طول ثلاثة آلاف متر، كنا نبحث عن محل لبيع الصحف، لنشتري جريدة.
قال لي صديقي:
ـ ما رأيك في افتتاح محل في هذا الشارع لبيع الصحف؟
أجبته على الفور:
ـ خسارتنا مؤكدة.

١٢٧. الفراغ

كل يوم، وأنا ذاهب إلى عملي، وأنا راجع منه، أمر بهم في المقهى، أراهم يغوصون في مقاعدهم، شاردين يتأملون الفراغ، ينظرون ولا يرون شيئاً، أغبطهم، أقول يا ليت لي بعض الوقت من فراغ، كي أقعد مثلهم، خالي البال، لا عمل ولا تفكير ولا شغل.
الآن، وقبل أن أفرغ من مجموعتي القصصية هذه، أفكر بمجموعة قصصية أخرى جديدة.

١٢٨. لا تفكر في شراء سيارة

أسير على الرصيف راجعاً من عملي إلى بيتي، تقف سيارة إلى جانب الرصيف، يناديني باسمي رجل من داخلها، ألتفت إليه، وإذا هو صديقي سامر، منذ زمن ما التقيته، يدعوني بإلحاح إلى الصعود إلى سيارته، أستجيب إلى دعوته، أركب إلى جواره، يمضي في الكلام، وهو يقود السيارة.
"لا يجوز أن يسير المرء على قدميه، الجو لطيف حقيقة، ولكن الغبار يعمي العيون، والشمس مزعجة، أنا حياتي تغيرت منذ أن اشتريت السيارة، صدقني عندما أصبح عندي سيارة بدأت أعرف معنى الحياة، خسارة العمر الذي عشته من غير سيارة، ما مر غير شهرين على شرائي لها، ولكن حياتي كلها تغيرت، صرت أرى الدنيا بشكل مختلف، صرت أشفق على الناس الذين يمشون على أقدامهم، وأحياناً أسخر من الناس الذين يعبرون الشارع وهم يقفزون أمام السيارة مثل الأرانب، ولكن أحياناً أستاء جداً من الناس الذين يمشون أمامي مثل السلحفاة، أود لو أدفعهم قليلاً دفعة صغيرة بسيارتي، ولو من غير أذى، ليتعلموا أصول السير في الشارع، بعض الناس لا يعرف أصول السير حتى على الرصيف، خبرني متى ستشتري سيارة؟".
أجيبه:" لا أفكر على الأقل حتى الآن بشراء سيارة".
ويندفع في إقناعي بشراء سيارة، ويسترسل في الحديث ويستطرد ويعيد الأفكار ويكرر العبارات،ثم يلتفت إلي فجأة ليقول لي: "كان بودي أن أوصلك إلى أمام باب البناء، ولكن المشكلة ..." وينظر إلى ساعة يده، ثم يقول:
"الساعة الآن الثالثة إلا الربع، وأنا على موعد في الطرف الشرقي من البلد مع صديق في الثالثة والربع، تأخرت عليه".
أشكره، وأنزل لأتابع الخطوات القليلة الباقية سيراً على الأقدام.
بعد بضعة أشهر، لا تزيد على الخمسة، ألتقيه على الرصيف نفسه وأنا عائد إلى بيتي من عملي، وهو يسير مستعجلاً وكأنه يهرول، يستوقفني، يحييني، يكلمني وهو يلهث:
"هنئني، بارك لي، الحمد لله، بعت السيارة، كانت ستجلب لي الجلطة، عودتني على الكسل، صرت لا أمشي، زاد وزني، تراكمت الدهون، ارتفعت نسبة الشحوم في الدم، بعتها، بعتها ولله الحمد، بعتها بخسارة، ولكني كسبت صحتي، صدقني الآن أسخر من أصحاب الكروش الذين تراهم دائماً وراء مقود السيارة، أنصح لك: لا تفكر أبداً في شراء سيارة".

١٢٩. التفاحة الأخيرة في الحقل

في ظل وريقة خضراء مختبئة، الحر يلفحها، تتنسم الفيء، قشرتها تتوهج، تتألق، عصارتها تتموج، تنشر العبق، تود لو تنفذ عبر المسام، هل يأتي عصفور ليثقب الجلد فيفور العصير، أو تهب نسمة فتسقط على الأرض، ملت الهواء، تود لو تمس الأرض، لو تستلقي عليها

فتنام، البذرة في داخلها نضجت، تود لو تنفجر، هل يمر طفل فيقضمها، لتذوب في الرضاب، تتشهى لو تلامس الشفاه، لو في اللسان تذوب، ملت التعلق بغصن أمها، آن لها أن تنفصل عنه.

ويأتي صاحب الحقل، يجني التفاح كله، يقطف كل الثمار، يصل إليها، يقطف كل ما يجيط بها من أخوات، يتأملها، تسمعه يهمس: "أنت أجمل تفاحة، أنت أشهى تفاحة، لا يمكن أن يخلو الحقل كله من التفاح، لا بد أن يبقى على إحدى شجرات الحقل كله تفاحة واحدة، يجب أن تبقى للموسم القادم، أو قد يأتي صاحب الحظ السعيد فيقطفها".

من بعيد يلوح شاب وصبية وهما يتراكضان مرحاً، هل ستبقى التفاحة وحيدة على الغصن لتبذل، أم هل سيدخلان الحقل ليقطفا التفاحة الوحيدة الأخيرة ويحظيا بالحظ السعيد؟

١٣٠. على رصيف الوطن

أقول لصاحبي:

ــ من الجدير بالسفارة أن تكون فيها قاعة انتظار كبيرة مكيفة لاستقبال المراجعين، هذا لا يليق بسفارة مثل هذه السفارة، من المؤسف أن يقف مئات المراجعين على الرصيف تحت شمس تموز الحارقة وراء قضيب حديدي بانتظار دورهم.

ويجيبني صاحبي:

ــ لا تقلق، هم على رصيف الوطن.

١٣١. برميل

صدقوني بدأت أكره ذاتي، أتمنى أن أنفجر، مللت، أتمنى لو ملؤوني بالعطر لا بالنفط.

١٣٢. في انتظار المنشار

جذوع أشجار مقتطعة منذ أشهر، مرمية إلى جوار مخزن للأخشاب، تنتظر دورها، عما قريب سيدخل فيها المنشار كي يقطعها إرباً إرباً، كما يقال، ولكنها، مع ذلك، وقبل أن تقطع، تنبثق من أطرافها فروع صغيرة، تشق اللحاء وتخرج، حاملة وريقات خضراء صغيرة، تأتلق في النور والهواء.

١٣٣. فلسفة

نفحتني رائحة تبغ وسكائر فور دخولي مكتبه، ورأيت الغرفة غارقة في سحابة من دخان، كأنني أدخل مقهى شعبياً رخيصاً يعج بمئات المدخنين، وعلى طاولته رأيت صحناً مملوءاً حتى أطرافه ببقايا سكائر متراكمة على شكل هرم، وقبل أن أسأله قال لي وهو ينفث دخان سيكارته:

ــ هذه فلسفتي في الحياة، هذه هي عبقريتي وعظمتي، أنا أصنع تاريخاً وأبني صروحاً، هذا كل ما أقدر عليه، ولا يهمني بعد ذلك أن يذكرني التاريخ أو ينساني.

١٣٤. لن أشيخ

بلغت الستين، ولكنني معك لن أشيخ، أيتها الزوجة الحنون.

١٣٥. ليس سواك

كان لهم عزة وعبلة وهند وسلمى وليلى، واليوم لهم نانسي وهيفا وشيرين وميسم، ولبعضهم غداً في الجنة الحور العين، وأنا ليس لي من قبل ولا من بعد سواك، حتى في الجنة لن أسأل الله الحور العين، لن أسأله إلاك، أيتها الزوجة الحنون.

١٣٦. مصادفة

التقاه على الرصيف، فسأله: متى ستقلع عن أخذ الرشوة، فأجابه: لم يبق إلا القليل، فسأله: وما هو هذا القليل؟ فأجابه: اشتريت لابنتي الوحيدة داراً، بقي علي فرشها وتأثيثها، متى فرغت من تأثيثها فسوف أقلع عن الرشوة.

١٣٧. حفرة صغيرة

رأيتهم يصنعون بالمعاول فتحة صغيرة، بطول المتر، وعرض نصف المتر، لم أكد اصدق، هل تكفي هذه الفتحة، ووقفت أتأمل، وانتظرت، ثم

وصل القوم، ربما كانوا مئات، والتف حول الفتحة منهم عشرات، وفي الخارج وقفت من غير شك عشرات السيارات، ونزل أحدهم من الفتحة في الحفرة، لم يكن أحداً من أولاده، كان أولاده يرتدون بدلات فاخرة، كرمى لكبار المشيعين، ثم حمل اثنان قماشاً أبيض يلتف حول جثمان، هل هو نفسه حقيقة هنا؟ لا أكاد أصدق؟ ناوله أحدهم، وليس ابنه، لذلك النازل في الحفرة، دلاه، تناوله الآخر بمهارة، كيف اتسعت له هذه الفتحة الصغيرة؟ مدده الآخر هناك، ثم خرج، حمل الرجلان بلاطة، وسدا بها الفتحة، ثم أهالا فوقها التراب، أغلق القبر، سُكّر، أُوصد، تم الأمر في خمس دقائق، وهو الذي عاش سبعين عاماً، وفي دقائق أخرى، غادر المئات المقبرة، انطلقت السيارات، وبقي هو في الحفرة وحده، الأزاهير متفتحة، العشب الأخضر يتألق تحت شمس الربيع الدافئة، النسمات ناعمة، تهب من أفق مفتوح، واسع جداً، تبعث في النفس الحياة.

١٣٨. شهادة

أشهد أني أحبك، وأشهد أني لا أحب سواك، أيتها الزوجة الحنون.

١٣٩. بعض الوقت

انتهى عملي اليوم باكراً، وعندي ساعة أو أكثر قبل موعد العودة إلى البيت، يمكن أن أشرب فيها فنجان قهوة في مكتب زميلتي في العمل رجاء، ويمكن أن أدعو صديقتها هند إلى مقصف قريب، وأرفع سماعة الهاتف، أتصل بها، أقول لها ألقاك في المجمع التجاري، عندنا ساعة من فسحة، يمكن أن نشرب في مقصف المجمع القهوة، ونشتري بعض الحاجات، ثم نعود إلى البيت معاً، ليفرح بنا الأولاد.

١٤٠. مصادفات

عند زاوية الرصيف التقاه فجأة، فقال له: ما سر هذه المصادفات الجميلة؟، فأجابه: يجب أن تعرف الآن أنها ليست مصادفات، أنا في الحقيقة أتقصدك، وأسعى إليك، وأبرز لك عند الضرورة، وأنت تحسبها في الواقع مجرد مصادفات.

١٤١. قصص مملة سخيفة

في كل مرة يلتقيني فيها يقول لي: قرأت اليوم في الجريدة قصة سخيفة، مملة، لم تعجبني، ذات يوم قلت له: متى ستقرأ في الجريدة قصة تعجبك؟

١٤٢. حجارة كبيرة

أمام صرح أثري قديم تقول لي زوجتي:

"كيف استطاعوا رفع تلك الحجارة الضخمة الكبيرة إلى مثل هذا العلو الشاهق؟ كيف كانت جسومهم؟"، أقول لها:" وكيف استطعت أنا أن أشتري لك تلك الشقة الناعمة الصغيرة؟".

١٤٣. في ربع ساعة فقط

خمس ساعات أمضتها في المطبخ وهي تعد أصناف الطعام، تساعدها الخادمة، في المساء حضر الضيوف، وتناولوا الطعام كله في ربع الساعة فقط.

١٤٤. حرية التفسير

قال لصاحبه وهو يحاوره:

ـ أنا أريد فهم الدين بحرية، لا أريد أن أتقيد بآراء الفقهاء والمفسرين والدارسين للدين قبلي، أنا أريد أن أفهمه كما أشاء وحدي، وبما يناسب روح العصر، لأنني أعتقد أنه مناسب لكل زمان ومكان.

يقول له صاحبه:

ـ هذا من حيث المبدأ مقبول، ولكن، لا بد من أن تقرأ آراء الفقهاء والمفسرين والدارسين، وأن تفهمها، وأن تمتلك أصول الفهم والتفسير، وأن تعرف قواعد اللغة وخصائصها وأسرارها، ومن حقك بعد ذلك أن تفهمه بحرية.

يجيبه صاحبه:

ـ هذا كله غير ضروري، أنا أريد أن أنطلق من فهمي الذاتي المباشر، ومن ذوقي الخاص، لأن الدين في حقيقته علاقة خاصة بين العابد والمعبود.

يجيبه صاحبه:

ـ نعم هي علاقة خاصة، ولكن تحكمها القواعد والأحكام والأصول، التي وضعها الدين نفسه.

يرد عليه صاحبه:

ـ أنا أريد أن أصنع ديني الخاص بي وحدي، لأحقق حريتي.

١٤٥. ليست أحلاماً

رأيتهم لا يرمون أكياس القمامة من النوافذ، رأيتهم لا يدخنون داخل الأماكن المغلقة، رأيتهم لا يرمون أعقاب السكائر والمناديل الورقية وهم يسيرون في الشوارع، رأيتهم لا يستخدمون أبواق السيارات، رأيتهم لا يتجاوزون إشارات المرور، سواء في ذلك السيارات والمشاة، رأيتهم لا ينزلون إلى الشوارع بلباس المرض وعامل الدهان، رأيتهم لا يلبسون قمصاناً عليها كلمات بحروف أجنبية، رأيتهم لا يعلقون على شرفات منازلهم أعلام دول أجنبية في أثناء مباراة كأس العالم، رأيتهم لا يحدقون في عيون الآخر وهم يسيرون على الرصيف، رأيتهم لا يرفعون أصواتهم وهو يتكلمون، رأيتهم لا يزيدون في أسعار البضائع ولا يطلبون ثمناً أكبر ثم يبيعون بثمن أقل، رأيتهم لا يخرجون من مكاتب عملهم قبل ساعة انتهاء العمل، رأيتهم لا يتأخرون عن عملهم، رأيتهم ينجزون أعمالهم بسرعة، رأيتهم يحب بعضهم بعضاً، رأيتهم يحبون وطنهم، رأيتهم هكذا في الواقع والحقيقة، لا في الحلم أو المنام أو أحلام اليقظة، رأيتهم هكذا في مدينة صغيرة قريبة جداً خارج حدود الوطن، بينها وبين مدينتي خطوة، هل المشكلة في أن مدينتي في الجنوب، وهي في الشمال؟.

١٤٦. ذوق

في طريق العودة من النزهة قال لي وهو يغص بالكلمات، كمن يبتلع قطعة ليمون:

ـ نزهة غير جميلة، بل قبيحة.

صمتت ولم أعلق، فأضاف:

ـ كل شيء عكر، الجو والبستان والشجر، حتى الزهر والماء، هذا ليس بماء، والبشر في البستان، أبشع شيء هم البشر.

قلت له:

ـ هذا رأيك، من حقك أن تقول أنا لم تعجبني النزهة، لا أن تصدر هذا الحكم.

قال:

ـ بل هو الحقيقة والواقع، هل تنكر ذلك؟

صمتت، ولم أرد الدخول معه في جدال عقيم.

١٤٧. المتنبي قال:

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مراً به الماء الزلالا.

١٤٨. متعة القراءة

يقول لي:

ـ رأيت في التلفاز ندوة يوم أمس عن رواية جديدة لكاتب جديد فاز بإحدى الجوائز، في الحقيقة ما عدت أذكر عنوان الرواية، ولا اسم المؤلف، هل رأيت الندوة؟

أجيبه:

ـ نعم.

يقول لي:

ـ عندي فضول للاطلاع على الرواية، هل عندك نسخة منها لتعيرني إياها؟

أقول له:

ـ هي متوافرة على الشابكة، يمكن أن تقرأها على سطح المكتب في الحاسوب، وهي متوافرة في ملف عندي، يمكن أن أرسله إلى بريدك الإلكتروني.

يجيبني:

ـ أريد الرواية مطبوعة على ورق، متعة القراءة في كتاب ورقي هي الأصل، ليست كقراءة كتاب على سطح المكتب.

أسأله:

ـ ما آخر كتاب ورقي مطبوع قرأته؟

يصمت قليلاً ثم يجيبني:

ـ في الحقيقة لم أقرأ أي شيء منذ تخرجي في الجامعة قبل عشر سنوات.

١٤٩. قبل الفوات

أقول له:

ـ عندك يا ولدي غداً المادة الأخيرة في امتحان الشهادة الثانوية، هل تريد أن تفوتك المادة؟

يجيبني:

ـ وهل تريد أن تفوتني مشاهدة المباراة الأخيرة في كأس العالم.

أقول له:

ـ يمكن أن تراها غداً مسجلة.

يجيبني:

ـ رؤيتها تنقل على الهواء مباشرة، ليست كرؤيتها مسجلة.

١٥٠. هدية

قبل يومين من امتحان المقرر الذي أعمل في تدريسه بالجامعة يتصل بي بالهاتف الخلوي صديقي، وهو مدرس لمادة اللغة العربية في إحدى الثانويات، يقول لي: "أريد أن نسخة من كتابك الجامعي المقرر، ابنتي ستقدم الامتحان بعد غد، لا تظن أني أبخل عليها بثمن الكتاب، أنا قبل الامتحان اشتريت لها حذاء بألف وخمسمئة ليرة، وأعرف أن كتابك ثمنه مئة وعشرون ليرة فقط، ولكن أريده هدية منك ".

١٥١. ثقافة

يدخل إلى غرفة المدرسين، فيجد زميله مدرس اللغة العربية منهمكاً في مطالعة صحيفة بين يديه، يسر للأمر، يسأله:" هل في الجريدة قصيدة أو قصة جديرة بالقراءة"، يرمي إليه زميله بالجريدة، وهو يقول له:" تفضل بإمكانك تصفحها"، يلقي عليها نظرة، وإذا هي جريدة إعلانات تجارية.

١٥٢. دعوة

يتنبه إلى سيارة تقف إلى جانبه، وهو يسير على الرصيف، يأتيه صوت من داخلها:" تفضل أستاذ لأوصلك إلى المدرسة"، ويلتفت، فيرى أحد طلابه وراء المقود، يعتذر إليه، ولكن الطالب يلح عليه، فيدخل في السيارة إلى جواره، الطالب يتكلم:"هذه سيارة أبي، أعطاني مفاتيحها، أرجو أن تعذرني، أنا سأوصلك إلى باب المدرسة، ولكن لن أداوم اليوم، اتفقت أنا وثلاثة من أصدقائي، سنذهب اليوم في رحلة إلى الشاطئ، ما رأيك في مشاركتنا في الرحلة؟".

١٥٣. نصيحة

في غرفة المدرسين يرى زميله حقيبته الجلدية ممتلئة بأوراق المذاكرة، فيسأله:"هل انتهيت من تصحيح أوراق المذاكرة؟"، فيجيبه: " نعم، سهرت ليلة أمس، لم أنم، حتى أنجزتها، وأعددت جداول العلامات"، فيقول له زميله:" لا تسرع في تسليمها إلى الإدارة، حتى لا يظن المدير أنك لم تصححها بشكل جيد، اتركها عندك أسبوعاً أو أسبوعين، ليثق المدير بدقة تصحيحك"، يرد عليه زميله: "ولكن أنا واثق من نفسي، ومن دقة تصحيحي"، يعلق زميله:" أنا أنصح لك ألا تسرع في تسليمها، سوف يستاء منك الزملاء، نحن في العادة لا نسلمها إلا بعد أسبوع أو أسبوعين، لا نريد أن تكون مختلفاً عنا".

١٥٤. حالة خاصة

أنا في مكتبي بالكلية، في يوم امتحان المقرر الذي أقوم بتدريسه، والطلاب يراجعونني كالعادة بعد انتهاء الامتحان للاطمئنان على إجاباتهم، تدخل إحدى الطالبات، وتضع كتابي المقرر على الطاولة أمامي، وتقول لي:" تفضل أستاذ كتابك، يمكن أن تعطيه العام القادم لطالبة فقيرة، أو تحتفظ به لنفسك، فهو كتابك"، أدهش لموقفها، أهم بالكلام، فتقول:" أنا واثقة من نجاحي بالمقرر، بل واثقة من تخرجي، فهذه آخر مادة، ولم أعد بحاجة للكتاب"، أقول لها:" احتفظي به لنفسك، في مكتبتك"، ترد:" ليس عندي في البيت مكتبة"، أقول لها:"

قد تحتاجين إليه في المستقبل، ولا سيما إذا عملت في التدريس"، ترد:" لن أحتاج إليه، ولن أعمل في التدريس" أقول لها:"احتفظي به ذكرى"، ترد:"أي ذكرى هذه؟ أنا لم أحتفظ بأي كتاب من كتبي من السنة الأولى إلى اليوم في السنة الرابعة ذكرى، كلها أتخلى عنها"، أعلق:" قد يدخل أحد إخوتك أو أخواتك إلى قسم اللغة العربية"، تعلق:" يكفي أني كنت في الأسرة ضحية هذا القسم، كانت أمنيتي الانتساب إلى قسم اللغة الإنكليزية، ولكن علاماتي لم تسمح لي، سأتقدم إلى امتحان الشهادة الثانوية، بعد تخرجي، وسأنتسب إلى قسم اللغة الإنكليزية".

١٥٥. الأساس

يمسك أبي بيدي، ويمضي بي إلى المدرسة عند نهاية العام الدراسي، يدخل على المديرة، يقول لها:" أريد لولدي أن يعيد الدراسة في صفه"، تدهش المديرة، تقول له:" ولكن ابنك متفوق، وترتيبه الأول على صفه، بل على المدرسة"، يقول لها:" أريد أن يكون أساسه قوياً، الصف الأول هو الأساس في التعليم"، كان هذا قبل أكثر من خمسين عاماً، وما يزال صوت أبي يرن في سمعي، وهو يكلم المديرة، اليوم تقول لي زوجتي:" ابننا محمد مكسور في مادتين، وهو في الثاني الثانوي، رسوبه في هذه المرحلة غير مريح، أنت أستاذ جامعة، وبعض الأساتذة في الثانوية زملاؤك و بعضهم الآخر طلابك، كلّمهم في الأمر، كي ينجح بأي طريقة كانت، الصف الثاني الثانوي غير مهم، المهم أن يتقدم العام القادم إلى امتحان الشهادة الثانوية"، أبي رحمه الله كان أمياً، أما زوجتي فهي متعلمة.

١٥٦. جدتي

أنتهي من إنجاز واجباتي المدرسية، فتأخذ جدتي الدفتر بين يدها، تفتحه، تنظر فيه، تقول لي:" خطك سيئ، يجب أن تعتني بالخط، وعندك هنا خطأ، يجب أن تعيد واجبك"، هكذا دأبها في كل يوم، وغير مرة اضطرتني إلى تمزيق الصفحة، وإعادة كتابة الواجب، ذات يوم تنبهت إليها وهي تمسك الدفتر بالمقلوب، فقلت لها مستنكراً:" ولكنك يا جدتي تمسكين بالدفتر بالمقلوب؟"، أجابت:" أعرف، لكي أرى خطك من الجهات كلها، هيا أعد كتابة واجبك"، يومها عرفت أن جدتي لا تعرف القراءة ولا الكتابة.

١٥٧. اللغة العربية والشعر الأسود

مالت علي بشعرها الأسود الناعم، غمرني شذاها اللطيف، أحسست بدفء شفتيها وهي تضع قبلة على خدي، ثم بأناملها الناعمة وهي تمسح أثر أحمر الشفاه، أحسست بها مختلفة عن قبلة أمي في الصباح، هي أول قبلة أتلقاها يوم كنت طالباً في الصف الأول الابتدائي من معلمتي بسبب العلامات التامة التي أحرزتها في إملاء اللغة العربية، من يومها وأنا أحب الشعر الأسود، واللغة العربية.

١٥٨. الرياضيات والبطن الممتلئة

في اليوم الأول من دخولي إلى الصف الثالث الابتدائي دخل علينا أستاذ الرياضيات، وكنت قد انتقلت من مدرسة تعمل فيها معلمات، إلى مدرسة يعمل فيها معلمون، الأستاذ هو ممتلئ جداً، يداه قصيرتان، تتقدمه بطنه الكبيرة، وهي مدورة كالكرة، بارزة إلى الأمام، كأنها جزء مستقل عنه، حاد النظرات، قاسي الملامح، وقفنا احتراماً له، اتخذ مكانه وراء المنضدة، وبادر فوراً إلى سؤالي أنا مباشرة، لا أعرف لماذا أنا بالذات، وليس غيري، "ما نتيجة ضرب خمسة في ستة"، تلعثمت، اضطربت، دعاني إليه، أخذ أذني بين إصبعيه، فركها، فركها، أحسست بها قد دميت، ثم دفع بي ببطنه المدورة إلى مقعدي، والدموع تنهمر من عيني، إلى اليوم لا أحب الرياضيات ولا البطن الممتلئة المدورة كالكرة.

١٥٩. قرارات

في كل مرة يقرر فيها أن يقلل وزنه يزداد فيها نهمه إلى الطعام.

١٦٠. البحث عن فتوى

ذهب إلى الفقيه وقال له: سأقص عليك بالتفصيل ما أقوم به، وأعرف أنه حرام، وأشعر بالذنب، ويعذبني ضميري، ولكن أريد أن تبحث لي عن فتوى، تجعله جائزاً، حتى يرتاح هذا الضمير الذي يعذبني.

١٦١. أقوال وأقوال

يقول الطبيب: "أرى وضع المرض عندي أفضل من وضعي، هو لم يدرس ولم يختص، وأنا أعطيه الراتب الجيد، وهو يعمل خارج أوقات الدوام بإعطاء الحقن وتعليق السيروم، ويحصل في الشهر أكثر مما أحصل أنا".

ويقول المدير: "المستخدم هنا في المديرية أفضل مني، هو يعد القهوة والشاي لي وللموظفين، ويعمل في تسيير معاملات المواطنين، ويأخذ منهم أعطيات ورشاوى أكثر من راتبي".

ويقول التاجر: "هذا المتسول الذي يجول كل يوم في السوق أفضل مني، ليس عنده محل يدفع ضرائبه، ولا أموال يدفع زكاتها، ولا يشغل باله بارتفاع الأسعار أو انخفاضها، كل يوم يتسوّل ليرة من هنا وليرتين من هناك، إذا حسبنا ما يحصل عليه في اليوم الواحد نجده يحصّل أفضل مني، وهو يعيش هانئاً مرتاح البال".

ويقول المتسول: "ما الفرق بيني وبينه؟ هو إنسان وأنا إنسان، هو من حقه أن يعيش وأنا من حقي أن أعيش، هذا المال الذي بين يده هو رزقي، ولكنه يتحكم به".

ويقول المستخدم:"ما معنى أن يكون مديراً؟ هو لم يصبح مديراً، هم صنعوه، هو يعمل أقل مما أعمل، بل هو لا يعمل، هو لا يعرف أي شيء عن المديرية، أنا أعرف كل شيء، أنا هنا في المديرية قبله، وهو سيذهب وأنا سأبقى، ما معنى أن يكون راتبه أكثر من راتبي؟".

ويقول الممرض: "ما الفرق بيني وبينه؟ إذا درس عدة سنين واختص هل يعني أنه يفهم أكثر مني؟ هو لا يعلق السيروم ولا يعطي الحقن، وأنا أفعل كل شيء، أستطيع أن أشق جرحاً بطول نصف متر وأخيطه في عشر دقائق، الأمر يعود إلى الذكاء والخبرة، كثير من الأمور أعرفها وهو لا يعرفها، لولا اللوحة المعلقة على باب العيادة لكنت أفضل منه".

وآخرون يقولون مثل هذه الأقوال، ويعيد الجميع كل يوم الكلام نفسه.

١٦٢. شهريار يأمر بقتل شهرزاد

في صباح الليلة الثانية بعد الألف استيقظ شهريار، دعا الوزراء والمستشارين والأعوان، دعا السياف، صاح بهم، وشهرزاد إلى جانبه: ــ أوغاد، خونة، كاذبون، منافقون، كلكم منافقون، ما من أحد قال لي إني مخطئ، كلكم زينتم لي القتل، الآن عرفت، أنا طيب، أنا بريء، أنا نقي.

غص حلقه بالكلمات، ثم التفت إلى السياف، وصاح به:

ــ اقطع رؤوسهم جميعاً.

تدخلت شهرزاد، وقالت:

ــ مولاي، أقول لك بإيجاز، كل ملك على مر الدهر يكرر مثل هذا القول، وهو وحده المسؤول، حتى عن وزرائه ومستشاريه، لأنه هو الذي يختارهم.

صاح بالسياف:

ــ اقطع رأسها فوراً.

قهقهت وقالت:

ــ لا، لا يستطيع تغيير ما جرى في التاريخ، ولا أنت تستطيع، شهريار عفا عن شهرزاد منذ عهود وعهود، ولكننا في كل يوم نكتشف في شهريار ما هو جديد.

١٦٣. سوف أحيا

"إن أردت السر فاسأل عنه زهر الخميلة، عمرها يوم، وحيا اليوم حتى منتهاه".

١٦٤. ربطة العنق

أصدر مذكرة بنقله من مكتبه إلى المستودع، متذرعاً بحاجة أمين المستودع إلى من يساعده، فالغبار يأكل الملفات، قبل العمل على مضض، ولم يمض سوى شهرين حتى أصدر مذكرة أخرى بنقله إلى المغاسل في المديرية ليعنى بتنظيفها، طلب مقابلته، فرفض، وأكد لمعاونه ضرورة مباشرة عمله فوراً، وأمر معاونه أن يلغي عقد عمله إذا لم يباشر عمله الجديد مباشرة، قدم عريضة خطية يرجو فيها توضيح سبب نقله، فلم يرد عليها، تدخل المعاون مرة ثانية وسأله، أجابه: "هو في عقد العمل مستخدم تنظيفات، ومن حقي أن أضعه في أي مكان نحن بحاجة إليه، لا أعرف كيف وضعه المدير السابق مستخدماً خاصاً في مكتبه"، يعلق المعاون: "وجده مهتماً بالنظافة، مخلصاً في عمله، حسن الهندام، جيد المظهر، حليق الذقن دائماً، مسرح الشعر، مظهره لا يوحي بأنه عامل تنظيفات، لذلك وضعه مستخدماً في مكتبه، وكان يدخل على ضيوفه بالقهوة، وهو مهذب جداً، ويحسن التعامل مع الضيوف، ويعرف كيف.."، قاطعه قائلاً بتوتر:" يكفي، فهمت، ما بقي غير أن ترشحه أنت الآخر لمنصب الوزير، أو تزوجه ابنتك، كل ما يهمكم أنتم دائماً المظهر، أنا لا قيمة عندي للمظهر، هيا قل له أن يفك ربطة عنقه، هل ترى من اللائق أن يضع المستخدم في المديرية ربطة عنق مثلك، وأنت موظف في الدرجة الأولى، ومعاون المدير؟ ومادام مهتماً بالنظافة وصادقاً في عمله كما قلت فلينزل إلى المغاسل في المديرية، نحن بحاجة إليه هناك، أكثر

مما نحن بحاجة إليه هنا".

ويدخل ذات صباح إلى مكتبه، فيجد على الطاولة هدية ملفوفة بورق فاخر، يتردد، يفتحها، وإذا هي ربطة عنق، يراها أفعى تسعى نحو عنقه، تكاد تلدغه، من يهديه ربطة عنق؟ هل هو ذلك المستخدم المغرور؟ هل يريد أن يسخر منه، سوف يستدعيه، سيلفها حول عنقه، ويخنقه بها، هل يقبلها منه؟ ويدعوه إلى عقدها؟ هو لا يعرف كيف يربطها، كلما اشترى ربطة عنق طلب من البائع أن يعقدها لها، ويحتفظ بها معقودة، قرأ البطاقة الملصقة على الورق، وإذا هي هدية من معاونه، دعاه إليه، ثم قال له: "هديتك مقبولة، بشرط أن تعقدها لي بنفسك".

١٦٥. في منتهى السرور

تسلمت من المصرف الحوالة، ثلاثة آلاف ليرة، وضعت المبلغ في جيبي، وتوجهت إلى البيت، لأعطيه لزوجتي والأولاد، المبلغ زهيد جداً، هو تعويض قصة نشرت لي في إحدى المجلات، لا يكاد يكفي مصروف يومين، ومع ذلك غمرني سرور طاغ لا أعرف سره.

اتخذت موضعي في الحافلة إلى جوار النافذة، والنسمات العليلة تتسرب إلي، كأنني فراشة تسبح في العبير، وحط فجأة إلى جواري رجل كهل، وهو يلهث، يلتقط أنفاسه بصعوبة، مد يده إلى النافذة يريد فتحها إلى أقصى حد، عرضت عليه أن يأخذ مكاني، فاستجاب بسرعة، وهو يكاد يختنق، أخليت له مكاني، فقعد إلى جوار النافذة، وأخذ يتنسم منها الهواء، استل من جيبه علبة دواء، أخرج منها حبة، ابتلعها، ثم التفت إلي يشكو ضيق صدره وهو يلهث، حدثني عن عملية سيجريها بعد ثلاثة أيام، تغيير الصمام، سيجري العملية في مستشفى حكومي، سيجريها من غير مقابل، وقد وصف له الطبيب ثلاث حقن عليه أن يأخذها خلال الأيام الثلاثة القادمة، قبل إجراء العملية، وهو لا يملك ثمن أي واحدة، ثمن كل واحدة ثلاثة ألاف ليرة، المبلغ الذي قبضته للتو ثلاثة آلاف ليرة، ابنته كفيفة، في العشرين من عمرها، العام الماضي في ليلة العيد انفجرت جرة الغاز، ماتت زوجته وابنه، ضاق صدره، أخذ يحشرج، بصعوبة بالغة استل علبة الدواء، ابتلع حبة أخرى، أخذت أدلك كتفه، وهو يشهق، بكى، أكب على يدي يقبلها، عرضت عليه أخذه إلى المستشفى أو الاتصال بأحد أقاربه، أقسم لي أنه لا قريب له ولا أحد يعينه سوى ابنته الكفيفة، ولا بد من أن يتدبر ثمن الحقن الثلاث، قصد إحدى الجمعيات الخيرية فردته خائباً، أخرجت حافظة نقودي، لا بأس، سأكتب قصة ثانية، سأعيد نشر القصة في مجلة ثانية، سأقبض تعويضاً آخر، أعطيته ألف ليرة، بقي لي من المكافأة ألفا ليرة.

رويت لزوجتي والأولاد قصة الرجل، وأنا في غاية السرور، قلت لها:"سوف يثيبني الله خيراً، هي صدقة، أو زكاة"، ضحكت زوجتي كثيراً، قالت لي:" أنت لم تدفع صدقة ولا زكاة، أنت دفعت مكافأة قصة جيدة".

ما أزال في غاية السرور، لا أعرف لماذا، فلتكن القصة مؤلفة، ألا يستحق مثلي مكافأة التأليف؟.

١٦٦. أجمل الأيام

قال لزوجته: "صدقيني، أجمل الأيام هي تلك الأيام الثلاثة التي أمضيتها في المستشفى العام الماضي في مثل هذا الوقت، أذكرها، أشتاق إليها، كم أتمنى أن أدخل المستشفى مرة أخرى"، نظرت إليه غير مصدقة، فقال لها: "كل الأهل والأقارب والأصدقاء جاؤوا إلى زيارتي، حتى الذين كنت على خلاف معهم، كلهم جاؤوا إلى زيارتي، غرفتي امتلأت بالزهور، وأنت كنت دائماً على جانبي، عرفت مقدار حبك لي، الآن، لا أحد يزورنا، وأنت عدت إلى ما كنت عليه، كل شيء عادي ومل، والأولاد، حتى الأولاد، أحبوا أباهم وهو على سرير المرض، والآن لا أحد منهم يسأل عنه"، قالت له زوجته مازحة: "ما رأيك في الدخول إلى المستشفى مرة أخرى؟"، أجابها: "صدقيني أتمنى ذلك، بشرط من غير ألم ولا مرض ولا عملية ولا أدوية ولا علاج".

١٦٧. هنا غير هناك

فتح زجاج النافذة إلى جانبه ورمى العلبة الفارغة، نظرت إليه، وأنا إلى جواره في مقعد السيارة، فقال:

ـ عندما كنت هناك ما كنت أفعل هذا، الأمر هنا مختلف.

١٦٨. لا نهر ولا بحر ولا ماء

ما إن اتخذه مكانه في المقعد إلى جواري، حتى بدأ الحديث معي، حتى قبل أن تقلع الطائرة، لغته الإنكليزية متعثرة، ولكنه يحسن التعبير عما يريد، وأستطيع أن أفهمه، جاء الآخر بعده بقليل، قعد إلى يساري، لم يتكلم، حتى إنه ما ألقى التحية، بعد أن أقلعت الطائرة التفتّ إليه وحييته، ردّ بإنكليزية جيدة، ولكنه حتماً ليس إنكليزياً ولا أمريكياً، الأول سمح، كريم، فتح لي قلبه، حدثني عن كل شيء، كأنه يعرفني منذ عشرين سنة، الثاني لا يكاد يتكلم، بل لا يريد أن يتكلم، قبيل نهاية الرحلة، وقبل أن تحط بنا الطائرة، عرفت أن الأول من مدينة تقع عند مصب نهر على بحيرة واسعة، سكانها أقل من مليون، تحيط بها جبال متوجة دائماً بالثلوج، تغطي سفوحها

الغابات، مناخها معتدل، كأنه ربيع دائم، يعمل أكثر سكانها في الصيد، وقطع الأخشاب، والآخر من مدينة كبيرة مزدحمة، تقع في وهدة منخفضة، تحيط بها تلال عالية، لا نهر فيها ولا بحر، مناخها صحراوي جاف، مياهها شحيحة، سكانها يزيد عددهم على خمسة ملايين، يعمل أكثرهم بالتجارة.

١٦٩. كيف سأمشي؟

في مقهى على الرصيف التقينا، صديق قديم، ما التقينا منذ زمن، دارت أحاديث شتى، ثم ساد صمت ثقيل، أخذ يرقب المشاة على الرصيف وهو يقول: " انظر، هذا في ظهره احديداب، هو صائغ ذهب، هذا نظره كليل، نظارته سميكة جداً، هذا مدقق حسابات، هذا كتفه اليمنى مائلة، هو طبيب أسنان، انظر إلى وجه هذا؟ كأنه يشم رائحة كريهة، وهذا كأنه يبتلع قطعة ليمون، هذا مشدود الظهر، رافع الرأس، هو ضابط متقاعد، انظر انظر إلى هذا، هذا حتماً تاجر، يمشي كأنه يهرول، لا يبالي بحركاته، جسمه مترهل، يده في جيبه دائماً، هذه هي عادته، وإن كان لا يضع في جيبه أي قرش، وهذا معلم مدرسة، طويل ناحل محدودب الظهر، انظر إلى بطن هذا وكرشه المدورة، واللغد المتدلي تحت فكه، هذا موظف كبير، انظر إلى هذا، كم يضحكني، هو أبله، لا أعرف لماذا يسير وهو يبتسم، كأنه يتذكر طرفة مضحكة، اعذرني أنا لا أعيب عليهم أجسامهم، أنا أصفهم بموضوعية وحياد، أنا أتكلم على ظواهر في أجسامهم هم صنعوها، بسبب جهلهم وغفلتهم، كان بإمكانهم أن يتحكموا في أجسامهم".

ويتقدم مني النادل، يخبرني أن رجلاً على الهاتف يطلبني، كيف سأنهض؟ كيف سأمشي؟ كيف سينظر صديقي إلي؟ كيف سيراني؟ أخشى ألا أستطيع التوازن، أخشى وهو يرقبني أن أتعثر فأقع؟

١٧٠. القانون

انتظر إلى نهاية الاجتماع، سأل أحد زملائه، أجابه: للأسف المجلس لم يوافق، وأنا لم أستطع الدفاع عنك، أو بالأحرى عن طلبك، رد: ولكن المجلس نفسه وافق في جلسته السابقة، رد: تلك موافقة أولية، رد: أعرف، المطلوب مني ألا أعمل، يجب أن أفشل، يجب أن أقصر في عملي، هذا جزاء من يتقن عمله، هذا جزاء من يعمل، يريدون مني أن أشعر بالإحباط، بالخيبة، يريدون أن أخطئ، ولكن لا، لن أحبط، سأظل أعمل، وافقوا على مشروعي أم لم يوافقوا، رد عليه: صدقني هم لا يقصدون ذلك، هم يطبقون القانون، رد: لا، هم لا يطبقونه، إنما هم يفسرونه كما يشاؤون.

١٧١. السيكارة

قال الأستاذ لطلاب كلية الطب المتحلقين حوله:

ـ هذه رئة المدخن، وهي كما ترون سوداء منتفخة، وهذه رئة غير المدخن، وهي كما ترون حمراء نقية، بحجمها الطبيعي.

علّق أحد الطلاب:

ـ ولكن كلتا الرئتين لرجلين ميتين، وهما على المشرحة، وهما كما يبدو في عمر واحد.

أجاب الأستاذ:

ـ ولكن المدخن مات بعد سنوات من المرض ومعاناة من الألم، وغير المدخن مات فجأة ومن غير مرض ولا معاناة.

١٧٢. ماذا أفعل؟

التقاه مصادفة، فقال له:"نومي قليل جداً، هذه الأيام، بل لا أستطيع النوم، ما إن أهجع إلى الفراش، وأضع رأسي على الوسادة حتى أحس به قد ثقل، تحضر أمامي فوراً السبعون سنة التي عشتها، أسأل نفسي ماذا فعلت فيها؟ ماذا قدمت لنفسي؟ اشتريت دوراً وقصوراً وسيارات، أنجبت بنين وبنات، ولكن ماذا أعددت ليوم الحساب؟ هل يكفي أن أشتري قبراً جديداً؟ وأنهض، أتناول عشاء دسماً، أملأ بطني، وأعود إلى الفراش، وأستغرق في النوم، ويتكرر الأمر نفسه في اليوم التالي، أرجوك قل لي ماذا أفعل؟".

١٧٣. أحاديث الحياة

جمعتنا مائدة العشاء عند أحد الأصدقاء، قال أحدهم:"ما هذا العشاء المبكر؟ أنا لن أهنأ به، أنا في العادة لا أتناول العشاء إلا بعد الواحدة ليلاً، قبل النوم، إذا تناولت العشاء الآن في الساعة الثامنة فسوف أجوع في الساعة الواحدة"، وقال الآخر:" أنا في العادة لا أتناول سوى وجبتين في اليوم، واحدة في العاشرة صباحاً، وثانية في السادسة مساء"، وقال ثالث:" أنا أتناول في اليوم ثلاث وجبات، في السابعة صباحاً، وفي الثانية بعد الظهر، وفي الثامنة مساء، ولا أتناول بين الوجبات أي شيء، أنظف أسناني ولا أتناول غير الماء"، علق أحدهم فقال:" أنا مثلك، عندي ثلاث وجبات في اليوم، ولكن لا بد أن أتناول بينها الفواكه، ووجبات خفيفة سريعة، ولا بد في السهرة من

المسليات والمكسرات والحلويات، وربما تناولت وجبة خفيفة قبل النوم"، وقال آخر:" أنا لي وجبة واحدة في اليوم، عند السادسة مساء فقط، هي وجبة كبيرة ممتلئة دسمة، ولكن لا بد من أن أتناول في النهار عشرين فنجان قهوة على الأقل، وثلاث علب سكائر أو أكثر"، وقال آخر: " الحقيقة أنا لا أعرف كم وجبة أتناول في اليوم، أستيقظ باكراً فأهجم على الثلاجة، وأتناول ما يحلو من طعام، ثم تستيقظ زوجتي والأولاد، فأتناول معهم طعام الإفطار، وأمضي إلى المحل، في السوق إلى جواري بائع وجبات جاهزة، يزورني في اليوم عدة زبائن قادمين من محافظات بعيدة، فأطلب لهم وجبات سريعة، وأشاركهم الطعام، ثم أرجع إلى البيت فأتناول الغداء، وآخذ قيلولة، وأستيقظ، فأفتح الثلاجة، ولا بد من أن أملأ بطني، ثم أذهب إلى السهرة، ولا بد من تناول العشاء مع الأصدقاء، وأرجع بعد منتصف الليل إلى البيت، فأتناول عشاء آخر مع زوجتي"، وجاء دوري في الكلام، فلم أعرف ماذا أقول.

١٧٤. سخيفة لا جديد فيها

قبل شهرين أعرته مجموعة لنجيب محفوظ، فردها إلي بعد يومين وهو يقول:

ـ سخيفة، سخيفة جداً، لا جديد فيها، سيئة بكل المعايير.

قلت له:

ـ من حقك أن تقول أنا لم تعجبني، ولكن ليس من حقك أن تحكم عليها بمثل تلك الأحكام.

هو نفسه صديق تلك النزهة التي كانت ذات يوم في البستان، ولم يعجبه فيها شيء، هل أعيره اليوم هذه المجموعة؟

١٧٥. مجموعة جديدة

ما يزال على سطح الحاسوب ملف جديد لمجموعة قصصية جديدة، أرجو أن أنشرها، أو لعلها من بعدي تنشر.

١٧٦. أنت هنا

أنت هنا، دائماً، وراء كل حرف، داخل كل كلمة، التفاحة الأخيرة الوحيدة في الحقل هي لك، ولأولادك، ولأحفادك، أيتها الزوجة الحنون.